القسم الخامس

جون

١١٩٩-١٢١٦

شكل حكم الملك جون نقطة علامة، وحداً فاصلاً في التاريخ الانكليزي، فقد تمّ فقدان جميع الممتلكات البلانتغنتية الواسعة في فرنسا باستثناء غسكوني، لقد فقدوا لصالح فيليب الثاني ملك فرنسا، الذي قطع أواصر بيت أنجو مع موطنه الأصلي، يضاف إلى هذا نجم عن النفقات المدمرة والمتصاعدة للحرب الفرنسية، وسوء تصرف جون مراراً مع رعيته، تصاعداً في مقاومة البارونات، التي أرغمت جون في سنة ١٢١٥ على إعطاء تنازلات —مؤقتة— كثيرة صدرت في مرسوم أو ميثاق اصلاحات [ماغناكارتا]، وتوفي جون بشكل مفاجيء سنة ١٢١٦، تاركاً ولده الرضيع هنري الثالث وريثاً له. وبدأ رالف أوف ديسيتو حكاية حكم جون في كتابه «صورة التاريخ» الذي توقف مع أحداث سنة ١٢٠١، وتناول الرواية من بعده لمدة أربع سنوات رالف راعي دير كوغشال **Coggeshall** وهو كاتب رهباني مولع بالأحداث الاعجازية، وبعده تولى جيرفاس **Gervase** وهو راهب من كانتربري، وصف الأحداث من ١٢٠٥ إلى ١٢١٠ في كتابه «أعمال الملوك»، ولقد كان جيرفاس ولداً مخلصاً لدير كاتدرائيته، وتظهر كتابته فن التأريخ الديري في أحسن أحواله، وأخيراً هناك بالنسبة للسنوات

الست المتبقية من حكم جون المؤرخ المجهول من بارنول **Barnwell** *الذي قدم لنا رواية متوازنة إلى حد ما ومصقولة، ومع ذلك هي رواية حيّة حول هذه السنوات الحاسمة من تاريخ انكلترا.*

جرى تتويج جون صاحب إيرلاندا، والوريث الشرعي لأخيه رتشارد الأول، دوقاً لنورماندي في روان، وتولى التتويج وولتر رئيس أساقفة روان يوم ٢٥نيسان ١١٩٩، وعندما وصل إلى انكلترا عُمّد بشكل مهيب ملكاً في وستمنستر من قبل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، في يوم عيد الصعود، ٢٧أيار.

وزار جون ملك انكلترا، بعد تتويجه مباشرة، ضريح القديس توماس (في كانتربري)، وزار بعد ذلك ضريح القديس ادموند في بري Berry وأمضى أحد الشعانين في نورثأمبتون، وقام بعد ذلك في ١٩حزيران بعبور القنال مع حشد من الفرسان، والجنود الرجالة والسفن، وتم العبور من شورهام.

وجرى طلاق الملك من ابنة إيرل غلوستر في نورماندي، وتولى ذلك أساقفة ليزوكس وبيوكس Bayeux وأفرانش Avranches مع أساقفة آخرين كانوا حضوراً، وكان الملك جون قد تزوج منها بإذن البابا، وتسلم مقاطعات غلوستر، وسمرست، وديفون، وكورنول، وتشريفات ومنح أخرى في أرجاء انكلترا.

ومهما يكن الحال، لقد استولى عليه الأمل بزواج يرقى به أكثر، فأصغى إلى النصائح السيئة ورفض زوجته، فكسب بذلك الغضب العظيم للبابا، أعني بذلك البابا انوسنت الثالث، وذلك مع غضب جميع أعضاء مجلس الكرادلة في روما، فلقد غضبوا لأنه تصرف بسرعة ضد الشرائع والقوانين، وتحلل مما ربطوه به بوساطة سلطاتهم.

وقدم آرثر ابن غيوفري صاحب بريتاني، وابن أخي الملك جون، إلى عمه الملك، وأطاعه في جميع رغباته، ثم تركه جون يذهب دون اتخاذه أي إجراء احتياطي، ولهذا ذهب آرثر عندها إلى ملك فرنسا، الذي تطلع شرهاً إلى ثروته، فضمه إليه ليتربى مع ابنه في باريس.

كان جون وآرثر صاحب بريتاني في سنة ١١٩٩ متنافسين بشأن إدعاء ملكية أراضي أسرة بلانتغنست، وامتلك آرثر مساندة قوية في أنجو، لكن لوردات بواتو وقفوا إلى جانب إليانور بقبول جون، وبذلك قلبوا الموازين ضد آرثر، وعندما حصل آرثر على حماية فيليب الثاني، ملك فرنسا، بقي هكذا ممثلاً لتهديد رئيسي لسيطرة جون على أراضيه.

سنة مائتين وألف

وحدث خسوف للقمر يوم ٣كانون الثاني، في منتصف الليل، ودام ثلاث ساعات، وقد حول على الفور لون الدم، وقذف بأشعة تشبه النار.

وأبرم في هذه السنة سلام بين فيليب الثاني، ملك فرنسا، وبين جون، ملك انكلترا. وتزوج لويس ابن ملك فرنسا من ابنة ملك اسبانيا، التي هي ابنة أخت ملك انكلترا، وبسبب هذا الزواج أعطاه جون كلّ أراضي بري Berry وأوفرين Auvergne وقلاعاً وكثيراً من التشريفات في نورماندي وغسكوني وأماكن أخرى كثيرة.

انتهى الآن تاريخ رالف ديسيتو، ونكمل الرواية بالحكاية الملونة لرالف راعي دير كوغشال Coggeshal ومثله مثل ديسيتو حدثنا عن السلام الذي عقد فيما بين جون وبين فيليب الثاني ملك فرنسا في سنة ١٢٠٠، وقدم لنا المزيد من التفاصيل، فقد تنازل كما قال: جون عن

أراضي وقلاع، ومنح فيليب ثلاثين ألف مارك (٢٠,٠٠٠ جنيه) وقدم له أيضاً الولاء عن الأراضي الفرنسية، ومن أجل أن يجمع هذا المبلغ فرض ضرائب ثقيلة على انكلترا، بما يعادل ثلاثة شلنات على كلّ مساحة من الأرض يفلحها محراث واحد.(فدان) .

وقدم الملك جون إلى مقاطعة يورك، وطلب المال من بعض رعاة الديرة السسترشيين، الذين قابلهم هناك، ومن رعاة ديرة آخرين تابعين لرهبانيات أخرى، فقد استهدف إلحاق الظلم بهذه الرهبانيات بفرض الضرائب، لأن الديرة كانت حتى حينه معفية من ضرائب من هذا القبيل، ورد رعاة الديرة ببساطة بالرفض، وفعلوا ذلك قبل الاتصال بالديرة التابعة لهم وبرعاتها، ذلك أنهم كانوا يخشون أنهم إذا ماوافقوا على المكوس الملكية، قد يفرض بعد ذلك خدمات أخرى على التنظيم الرهباني، وتعللوا حين رفضوا بأنهم لم يدفعوا أي مبلغ من المال دون موافقة عامة من جميع الرهبان.

وانزعج الملك كثيراً من ردهم، وأمر وهو مغضب وحانق العمال (الموجودين منهم بكلمات الفم والغائبين بالرسائل) بوجوب إلحاق الأذى برجال هذه الرهبنة بأية وسيلة يستطيعون استخدامها، وأن عليهم تعذيبهم، وعدم اظهار العدالة نحوهم في المضار التي تلحقهم، وفي المحاكم، وعدم مساعدتهم في خلافاتهم، بل عليهم إحالة كلّ شيء إلى الملك.

وانزعج رجال الفضيلة هؤلاء تجاه هذا القرار القاسي انزعاجاً كبيراً وخافوا، ولذلك أحالوا قضية مافرضه الملك إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، ورجوه أن يقابل الملك ويبحث معه قضية هذا الأمر العنيف، وليحاول التخفيف من عدوانيته بأية طريقة ممكنة سواء بالصلوات أو بالهدايا، وانتقد هيوبرت الملك بشكل علني بسبب عنفه الكبير، وأعلن أنه مضطهد للكنيسة المقدسة، لأنه عزم على فرض مثل هذه الظلامات

والمضار العظيمة على أبناء الكنيسة الذين هم أكثر الناس قدراً بين أبناء الكنيسة والذين تمتدحهم الكنيسة كلها وتحترمهم بسبب مسلكهم القويم في الحياة، ولمراعاتهم المخلصة والدقيقة للأمور الدينية.

فإلى تلك الساعة وضع الملوك والأمراء هؤلاء الناس دوماً في مكان محترم لائق، وأعطوهم أراضي مع كثير من المقتنيات، وحموهم جميعاً بدرع الوقاية والدفاع.

وأظهر الملك جون القبول بما طرحه رئيس الأساقفة، لكن لبعض الوقت فقط، ولزيادة الازعاج استدعى رعاة الديرة بوساطة رسائل جديدة، ولم يخلص عقله من العدوانية التي حملها نحوهم. وعندما كان الملك على وشك عبور البحر، وعده رئيس الأساقفة، حتى يرضيه، بمبلغ ألف مارك لصالح المنظمة الرهبانية، على شرط أن يؤكد الأعطيات والحريات التي منحت للرهبان من قبل الملك رتشارد، ورفض الملك هذا العرض رفضاً مطلقاً، لأنه كان صغيراً، ثم عبر البحر، وهو يتلفظ بالتهديدات وبالشتائم ضد تلاميذ المسيح، واشتكى إلى رعاة أديرة ماوراء البحر حول ردّ رعاة الأديرة الذين يعيشون في انكلترا.

ودفع الملك جون إلى ملك فرنسا الثلاثين ألف مارك كجزء من ثمن السلام معه، وبعدما هدأ جميع الأعداء وأخضعهم عاد إلى انكلترا في أيام عيد القديس مايكل في ٢٩أيلول، وقدم مع زوجته ايزابلا(٢٨) ابنة دوق أنغوليم، التي تزوجها عندما كان فيما وراء البحر بموافقة الملك فيليب، ووضع جانباً زوجته الأولى للسنوات الخالية، وتخلى عنها على أساس القرابة المحرمة للزواج، وفي اليوم التالي جرى تتويج جون في وستمنستر ومعه زوجته، التي كانت في حوالي الثانية عشرة من عمرها، ومع ذلك توجها ملكة.

وفي الصباح الباكر، وقبل الذهاب إلى الكنيسة، أمر الملك هيوج دي

نيفل، المسؤول الرئيسي عن الغابات، مع بقية رجال السلطة الأقوياء، أن يأخذوا بعين الاعتبار أمر الرهبان السسترشيانيين بوجوب نقل خيولهم، وخنازيرهم وقطعانهم من الغابات الملكية خلال أسبوع واحد، وبنهاية هذا الموعد كلّ مايوجد في داخل الغابات سوف يؤخذ ويباع لصالح الملك.

وبناء عليه، عندما أعلن أمر الملك القاسي إلى الرهبان في كلّ مكان، جهز كلّ دير أفضل ماليديه لإيواء قطعانه، وتحمل الرهبان بصبر الأذى العظيم الذي لحق بهم من الملك، وصلّوا في ضيقهم إلى ربهم المدافع عنهم، ليغير روح الملك نحو اللطف بهم، وليحرر رعيته من محنهم وحزنهم، أما الذي سمعهم ولم يتخل عن الذين وضعوا أملهم به، فحررهم بسرعة من آلامهم، فلدى اكتشاف رئيس الأساقفة لأمر الملك، أمر بناء على تشاوره مع رعاة الديرة، بعقد اجتماع في لنكولن، استعداداً لوصول الملك في ١٩ تشرين الثاني، حتى يتمكن ذلك الجمع من اللقاء به، وبسهولة يستطيع تهدئة فورة غضب الملك، وتحويله نحو الرحمة والتصالح، ووافق رعاة الديرة عن طواعية على هذا المسعى، والتقوا في المكان المذكور في اليوم المحدد، واثقين أكثر بعون الرب، ومعتمدين عليه أكثر من اعتمادهم على قدراتهم، واجتمعوا في اليوم التالي، وهو يوم عيد القديس ادموند، واستقبلوا باحترام وتحيات رئيس الأساقفة عندما قدم إلى المدينة، فترجلوا وركعوا على ركبهم أمامه، وبتواضع التمسوا من رئيس الأساقفة أن يعالج بلطف وعاطفة نحوهم، مسألة هذا الخلاف، وأن يتدبر بعنايته تلطيف سخط الملك عليهم، وأثير رئيس الأساقفة —على كلّ حال— بتذلل مثل هذا العدد الكبير من الرجال المشهورين، وترجل من على حصانه، ومثلهم تذلل في نفسه، وبكى، ثم وعد في أن يكون عونهم وناصحهم في جميع القضايا، وبعدما أصغى إلى مطلبهم وعدهم بتحقيق السلام ومنفعة الرهبنة بقدر مايمكنه، وأن يحاول تهدئة

الملك بكافة السبل.

ثم غادر رعاة الديرة المدينة دون رؤية الملك، وبحثوا قضية الخلاف فيما بينهم، ورأى بعضهم أنه يتوجب عليهم أن يدفعوا له كامل ماطلبه، ورأى آخرون وجوب رفض مطلبه، وكان هذا الرأي هو الذي انتصر بالنهاية.

التقى الملك جون في يوم الأربعاء الأول الذي جاء بعد عيد القديس ادموند، بوليم ملك اسكوتلندا الذي جاء مع رولاند أمير غالووي Galloway وعدد آخر من اللوردات، فهو قد جاء إلى لنكولن لتقديم الولاء إلى الملك، الذي توقف عنه حتى الآن، ولهذا تأجلت مسألة رعاة الديرة، وفي اليوم التالي أراد رئيس الأساقفة أن يتدخل مع الملك ويبحث معه قضية رعاة الديرة، لكنه سمعه وهو يتحدث وكأن الغضب مسيطر عليه، ويتحرك بموجبه حيث قال مخاطباً رئيس الأساقفة: «أرجوك يارئيس الأساقفة لاتجعلني أغضب في هذا اليوم لأنني اقترحت أن أستدمي هذا اليوم»، ولهذا كان رئيس الأساقفة حريصاً على نصح رعاة الديرة أن يتجنبوا التحرك أمام ناظري الملك، وفي الأحد التالي انتهى الملك من سماع قداس مع رئيس الأساقفة، وعندما كان على وشك مغادرة الكنيسة، سأل رئيس الأساقفة الملك أن يتعامل برحمة مع مشكلة رعاة الديرة، الذين كانوا واقفين بحضرته.

وبعد قليل من التريث، مضى الملك نحوهم، وخاطبهم بصوت مرتفع قائلاً: «وأين مولانا وأبونا رئيس الأساقفة»؟ وبادر رئيس الأساقفة نحوه مسرعاً، وبدأ على الفور نقاش سري معه ومع الأساقفة، بينما ظل رعاة الديرة واقفين في القاعة، وبعد طول انتظار جرى استدعاء رعاة الديرة للمثول أمام الملك، الذي أمر رئيس الأساقفة باخبارهم بخطته

وبرغبته، وبدأ رئيس الأساقفة حديثه على الوجه التالي: «نخبركم أولاً، أيها الآباء، أن الملك قد أزال من ذهنه جميع الحقد وكلّ الغضب الذي بدا واضحاً نحوكم»، ولدى سماع رعاة الديرة هذه الكلمات سجدوا على الأرض، وقدموا الشكر للملك، ثم تابع رئيس الأساقفة يقول: «ومثل هذا يسألكم الملك بتواضع أن تغفروا له كلّ أذى تحملتموه نتيجة لعدم الاتفاق هذا».

ثم شرع رئيس الأساقفة يتحدث مجدداً قائلاً:

«يسأل الملك الرهبنة السسترشيانية وأنتم أن تتدخلوا لصالحه، حتى يتم قبوله في اخوانيتكم، وفي جماعة الرهبانية، وأن يصلي رهبان كلّ دير في تلاوتهم لصالحه، زد على هذا قرر الملك، بناء على نصيحتكم بناء دير في انكلترا، حتى يُتذكر بشكل خاص مادام حياً، وليدفن فيه ويشرف بعد موته، إذا وفقه الرب إلى ذلك، ويعدّ من الآن فصاعداً أن يكون ولي رهبانيتكم والمدافع عنها، وأن يحمي كلّ مايلوذ بكم من أشياء، وعندما سمع رعاة الديرة هذه الكلمات امتلأوا بسرور عظيم، وقدموا الشكر للرب القادر الذي حول هكذا روح الملك لتكون لطيفة مع الرهبانية ومحترمة لها.

وعندما تم الاتفاق على هذه الأشياء بالطريق المعتاد، وأعطي كلّ واحد قبلة السلام من قبل الملك، اقترح رعاة الديرة وجوب ارسال الملك رسائل إلى كلّ واحد من عماله، خشية أنهم بتنفيذهم الأمر يوقعون المزيد من الضرر، ووافق الملك عن طواعية على هذا الاقتراح، وكلف رئيس الأساقفة بمهمة ارسال الرسائل باسم الملك إلى العمال في كلّ مقاطعة، وكانت نسخة الرسالة حسبما يلي:

«من جون ملك انكلترا بنعمة الرب، ولورد ايرلندا، ودوق نورماندي وأكوتين، وكونت أنجو إلى عاملي اسكس وهارتفورد، تحيات.

اعلموا اننا استقبلنا رعاة ديرة رهبانية سسترشيان برعاية كاملة وجميع مقتنياتهم وبضائعهم بأيدينا، محفوظة ومحمية، وبناء عليه آمركما بكلّ دقة أن تتوليا حماية هؤلاء الرجال والحفاظ عليهم والدفاع عنهم وعن جميع مقتنياتهم، وكأنها تماماً مقتنياتنا الملكية الخاصة، وألا تسببا لهم أي أذى أو ضرر، وألا تسمحا أبداً بمعاناتهم من أي أذى داخل منطقتي ادارتكما، وإذا حدث وكان قد لحق أياً منهم أذى أو اقترف بحقه جريمة من قبل أي انسان بسبب أوامرنا التي قضت بالتصرف بسوء نحوهم، عليكما التعويض والاصلاح بدون تأخير. شهدت بنفسي. لنكولن ٢٦تشرين الثاني».

وقبل هذا التاريخ سمع في الأول من تشرين الثاني صوت رعد مرعب، منذراً بوقوع شيء عظيم، فقد عاد من روما هيوج أسقف لنكولن، الذي كان في يوم الأيام رئيس دير في وتهام Witham وهو دير رهبانية كارثوشيان Carthusian في انكلترا، وبعد عودته أصيب بمرض عضال في لندن، ونتيجة لهذا المرض، وبعدما شغل هذا المنصب لمدة خمس عشرة سنة وخمسة عشر يوماً، انتقل من هذا النور، إلى —كما نعتقد— النور الذي لاينتهي، وكان ذلك في الأول من شهر كانون الأول، ونقل جسده الذي :ـ لا حياة من لندن إلى لنكولن، وكان مصير منصبه آنذاك بمشيئة الرب موضوع مشاورات في لنكولن فيما بين ملك انكلترا، وبين وليم ملك اسكوتلندا، وكان قد حضر معهما ثلاثة رؤساء أساقفة وتقريباً كافة نبلاء المملكتين.

وعندما أعلن أن جسد الأسقف بات على مقربة من المدينة، اندفع الناس على شكل حشود للمشاركة في موكب جنازة راعيهم الكنسي، وحضر الملكان نفسيهما، ورؤساء الأساقفة وجميع رجال الدين والنبلاء بكل تبجيل، وتخلى جون عن الأبهة الملكية، وسار مع رؤساء الأساقفة برؤوس مطأطأة، وبتواضع وضعوا التابوت على أكتافهم، وحملوا الحمل

المقدس لبعض الوقت متجاهلين الطين في الطرقات من أجل جنازة مثل هذا الرجل.

وأخيراً حمل جسد هيوج إلى كنيسته الأسقفية، من قبل رؤساء الأساقفة، والأساقفة ورجال الدين في البلدة، وهم ينشدون التراتيل والمزامير، وتليت فصول من الكتاب المقدس في القداس الليلي من قبل الأساقفة ورؤساء الأساقفة، واعتقد الذين أتيحت لهم الفرصة بلمس تابوته أو بتقبيل قدميه، أو بلمس بعض ثيابه، انهم محظوظين، وقدمت تقدمات كثيرة وأعطيات له، وهو مسجى لابساً شاراته وملابسه الكهنوتية، ووجهه غير مغطى، تبعاً للعادة، ورأسه مزين بقلنسوته الدينية.

وكان الأسقف هيوج قد شرع ببناء كنيسة جديدة في تلك البلدة تكرّس على اسم الرب الأب، وأراد أن تبنى هذه الكنيسة بمخطط رشيق، فتتفوق بجمال بنائها على جميع كنائس انكلترا الأخرى، وأمر بوجوب اكمال عمارتها سواء أكان حياً أم ميتاً، وفي الحقيقة كان قد أسس في أسقفيته نقابة دفعت ألف مارك كلّ سنة من أجل هذا العمل.

وانتشرت أقاويل أنه من خلال فضائل هيوج، وبنعمة من الرب، نال بعض المرضى من الناس الشفاء، ولاعجب أن يظهر الرب الكرامات للناس على الأرض ليمجد محبوبه هيوج، الذي آمن بقداسته عدد كبير من الناس، الذين عرفوا أنه مارس حياة كانت كلها فضائل وبلا خطيئة، ولكونه كان الأكثر شهرة وسمواً بين الأساقفة بالنسبة للقيام بواجباته الدينية، نال هيوج أعظم احترام بين رجال الدين، بسبب أنه حتى بعدما صار أسقفاً، حاول دوماً أن يعيش حياة متواضعة لابل حياة رهبانية، وذلك بقدر ماسمحت له وظيفته ومسؤولياتها، وقد كره وباء السيمونية كثيراً، إلى حد أنه لم يمنح قط منصباً لاهوتياً لأي انسان بسبب توصية من الملك أو من أي انسان صاحب سلطان، مالم تكن هناك براهين بأنه كان جديراً. وهناك أشياء كثيرة يمكن أن تكون نافعة

لتكتب عن طريقة حياته المحمودة، غير أننا ندع ذلك إلى الذين هم أكثر فصاحة منا، ويمتلكون المزيد من المعرفة عن أفعاله.

وانقطع كاتبنا هنا عن متابعة روايته ليقدم إلينا عدة حكايات عن الكرامات العجائبية جاء القصد منها التوجيه والتسلية للقارىء، وكانت هذه الوقائع قد حدثت قبل بعض السنين المتقدمة.

حدث في أيام هنري الثاني، عندما كان الفارس بارثلميو أوف غلانفيل Glanville يتولى حفظ القلعة في أكسفورد، أن بعض الصيادين كانوا يصطادون في البحر هناك، فأمسكوا بشباكهم مخلوقاً متوحشاً، وقد حمل إلى شحنة القلعة ليراه ويتفحصه، وكان عارياً تماماً، وشابهت جميع أطرافه أطراف الانسان، وكانت له لحية طويلة مدببة، وكان صدره مليئاً بالشعر وخشناً.

واحتفظ الفارس المذكور أعلاه بهذا المخلوق في السجن لمدة طويلة، ليلاً ونهاراً خشية أن يعود إلى البحر، ولقد أكل بشهية كلّ شيء جلب إليه، سواء السمك المطبوخ أو غير المطبوخ، لكنه كان يعصر بشدة السمك النيء حتى يطرد ماءه كلياً، وذلك قبل أكله، وهو لم يرغب بالكلام، أو بالحري لم يستطع، حتى عندما كان يعلق من قدميه ويعذب عذاباً شديداً، وعندما كان يؤخذ إلى الكنيسة، لم يظهر أي علامة على الاحترام أو الإيمان، لابركوعه ولابطأطأة رأسه، وقد شهد —على كلّ حال— القداس مراراً، وكان يسرع إلى فراشه عند غياب الشمس، ويبقى مستلقياً حتى شروق الشمس.

وحدث أيضاً أنهم أخذوا هذا الرجل إلى البحر، ووضعوه في البحر، بعدما جعلوا أمامه شباكاً قوية جداً مؤلفة من ثلاثة صفوف، وقصد هذا المخلوق أعماق البحر وعبر خلال هذه الشباك جميعها، وظهر مرة تلو أخرى ونظر مطولاً إلى الذين كانوا يراقبونه على الشاطىء، وغالباً

ماغطس ثم ظهر بعد وقت قصير، وكأنه يسخر من الذين كانوا يراقبونه ويخبرهم أنه تجنب شباكهم، وبعدما لعب هكذا لوقت طويل في البحر، وانفقد الأمل كلياً بعودته، سبح خلال أمواج البحر، وعاد ثانية إليهم عن طواعية وبإرادة منه ومكث معهم لمدة شهرين آخرين.

واحتفظ به بعد ذلك بإهمال وعومل بازدراء، لذلك هرب سراً إلى البحر، ولم يعثر عليه ثانية، وليس من السهل القول فيما إذا كان مخلوقاً بشرياً كتب عليه الفناء، أو نوعاً من أنواع الأسماك ظهر على شكل مخلوق بشري، أو نوع من أنواع الأرواح الشريرة مختبئة في جسد انسان غريق، وذلك حسبما قرأنا عن واحد من هذا القبيل في أيام القديس أون Ouen وليس بالمكن التأكيد أو النفي خاصة بسبب أننا سمعنا عن كثير من هذه الأشياء العجائبية، وعن وقوع حوادث مثل هذه.

ووقعت أعجوبة أخرى في سفولك Suffolk عند وولبت Wool-pit فقد عثر على طفل وأخته من قبل السكان قرب فم حفرة كانت هناك، وقد بديا في مظهرهما مثل بقية المخلوقات البشرية في شكل أطرافهما، لكن اختلفا عن البشر العاديين في لون شعرهما، لأن الطبقة الخارجية من شعرهما كانت ممزوجة بالأخضر.

ومامن أحد كان بإمكانه أن يفهم كلامهما، وعندما أخذا إلى بيت أحد الفرسان في وكس Wix واسمة السير رتشارد دى كلين Clane للنظر إليهما والتعجب، بكيا بدون توقف، ووضع أمامهما الخبز وأنواع أخرى من الطعام، لكنهما لم يرغبا بأكل شيء، وقدم لهما الطعام مع أنهما عذبا بالتجويع الكبير، لكنهما لم يأكلا شيئاً، وكان هذا بسبب اعتقادهما أن هذا النوع من الطعام لايؤكل، فهذا مااعترفت به الفتاة، عندما أحضر إليهما بعد وقت طويل، بعض السنابل الطازجة وهي على سوقها، وأدخلت عليهما في البيت، وقد أوميا برغبة شديدة أنه ينبغي اعطائهما هذه السنابل، وعندما وضعت الحبوب أمامهما، فتحا السوق وليس

سنابل القمح، ظانين أنه يمكن لهما العثور على الحبوب في السوق، وعندما لم يجدا الحبوب في السوق، شرعا بالبكاء ثانية، فأروهما الحبوب المقطوفة، فأكلاها بسعادة كبيرة، ولم يلمسا طعاماً آخر لوقت طويل.

وكان الطفل دوماً حزيناً وكأنه يعاني من وهن عظيم، وتوفي خلال وقت قصير، لكن الفتاة تمتعت تماماً بمزيد من ازدياد الصحة، ونمت لتعتاد على أنواع الطعام الأخرى، وفقدت ذلك اللون الأخضر، وكسبت ببطىء لون بشرة حمراء في جميع أنحاء جسدها، فبعدما ولدت مجدداً من خلال التعميد بقيت لسنوات عديدة في خدمة ذلك الفارس (حسبما اعتدنا أن نسمع منه ومن أهل بيته) وكانت حيوية ومفعمة بالنشاط.

وغالباً ماسئلت عن شعب بلادها، فكانت تؤكد أن جميع السكان لهم بشرة خضراء، وأنهم لم يروا الشمس قط، بل تمتعوا بنوع من الضوء، مثل الضوء الذي يبقى بعد غياب الشمس، وعندما سئلت كيف حدث أن وصلت إلى هذه البلاد مع أخيها، أجابت أن ذلك كان عندما كانا يتبعان شاة، ففتشا داخل أحد الكهوف، وبعدما دخلا إلى الكهف سمعا الأصوات المبهجة للنواقيس، وسيطر عليهما الصوت الجميل فمشيا وظلا يسيران بلا هداية داخل الكهف لمدة طويلة، حتى وصلا إلى المخرج، وعندما خرجا صعقا وصارا بلا عقل بسبب ضوء الشمس والمناخ الذي كانا غير معتادين عليه والهواء، وبقيا مستلقيين لوقت طويل عند فم الكهف، وخافا من أسئلة الذين وصلوا ورغبا بالفرار، غير أنهما لم يجدا المدخل إلى الممر، وألقي القبض عليهما.

وفي أيام الملك رتشارد، على شاطىء اسكس، وفي قرية اسمها ايدولف نس Edolfes Nesse عثر على سنين يعودان إلى مخلوق عملاق، وكانا من عظم الحجم بمكان أن مائتين من أسنان الانسان يمكن أن تقطع منهما، ولقد رأينا هذين السنين في كوغشال، واتفقنا أنهما فعلاً من العجائب، ووجد هناك أيضاً ضلع مخلوق عملاق، وعثر في

مقاطعة يورك على رأس مخلوق عملاق، يمكن للجمجمة أن تستوعب بوشل من القمح (٥ , ٣٢ليتر)، وأيضاً عثر عليه على شاطىء البحر.

وكان في ويلز رجلاً هائل الطول، بلغ نحواً من تسعين انشاً في الطول، وكانت أصابعه طويلة جداً وغليظة، غير أنه كان قد حرم من القوة بشكل مابوساطة المراهقة، وظهرت في السنة نفسها في تلك المقاطعة آثار أقدام بطول غير اعتيادي، على السهل المعشوشب، وحيثما كانت الآثار، ظهر العشب وكأنه أحرق بالنار.

استأنف كوغشال روايته التاريخية وأعادنا بشكل مفاجىء إلى حوادث سنة١٢٠١.

سنة إحدى ومائتين وألف

ثار واحد من نبلاء أكوتين اسمه هيوج، ويعرف بلقب البني، ضد الملك جون، وأراد أن يغزو أجزاءً كثيرة من المقاطعة مع حلفائه، وكان سبب هذا أن الملك قد تزوج من ابنة كونت أنغوليم، التي كانت مخطوبة له من قبل وفي حفظه، ولهذا السبب عبر الملك البحر، وأخضع الثوار.

وثارت في يوم ميلاد القديس يوحنا عاصفة قاسية، فيها رعد وبرق، وبرد ومطر غزير وعنيف، وقد سببت دماراً كبيراً للرجال، وللحيوانات وللحقول، وأحرقت البيوت، واقتلعت الأشجار في أماكن كثيرة، وبعد مضي خمسة عشر يوماً ثارت عاصفة أخرى، لكنها لم تشبه الأولى، لذلك لم يمكن تقطيع المروج، لأن ماقطع حملته بعيداً مياه الفيضان المتدفقة، وماتت حشود هائلة من الأسماك، من تلوث المياه التي سببها العشب المتعفن، وفي الحقيقة كان هناك فيضانات كثيرة وعارمة، استمرت لعدة

أيام وغطت مناطق كثيرة، فدمرت الجسور وأتلفت المحاصيل، وغرق كلّ شيء، ولهذا خاف بعض الناس أن الرب نوى من وراء هذا الهطول فيضاناً آخر عظيماً.

وجاء راعي دير فلي Flay إلى انكلترا لينشر كلمة الرب في مناطق متعددة، وحث الناس على مراعاة يوم الأحد، والاحتفال بوقار بأعياد القديسين بين أشياء أخرى كثيرة، ومنعهم من الذهاب إلى أي سوق مهما كان نوعه في يوم الأحد، ولهذا حدث منذ ذلك الحين أن الناس في جميع مقاطعة كانتربري وأماكن أخرى عديدة في انكلترا لايذهبون إلى الأسواق في يوم الأحد، وذهبوا لحضور القداسات الدينية، وانتشرت الأحاديث عن عدد كبير من الكرامات العظيمة، وكانت هناك أقاويل في كثير من مناطق انكلترا عن عقوبات ربانية أنزلت على الذين رفضوا بعد التبشير، ترك أعمال خدماتهم في الأيام المقدسة والسبوت بعد نداء الساعة التاسعة بعد الشروق.

وحدث في أيام بطرس الراعي الرابع لدير كوغشال، أن الأخ روبرت وهو أخ علماني تابع لذلك الدير، وكان مسؤولاً عن حفظ بيت الضيافة، دخل في أحد الأيام إلى قاعة الضيافة قبل تقديم وجبة الغداء حسبما جرت عادته، فوجد بعض الأشخاص، يدل مظهرهم الخارجي ولباسهم على أنهم كانوا محترمين، وكانوا جالسين في القاعة، وقد ارتدوا أردية تشبه مايرتديه فرسان الداوية، ووضع كلّ واحد منهم قبعة على رأسه، وكان هناك منهم قرابة تسعة رجال، أو أكثر، لأن الأخ لم يدقق تماماً ليعرف تعداد من اجتمع هناك، ونظراً لأنه اعتقد أنهم من الداوية، حياهم بلطف، وقال له أحدهم وقد بدا أنه مسؤول عن الآخرين: «أين يمكننا تناول الطعام»؟ فأجابه: «سوف تأكلون بالحجرة مع راعي الدير» فأجابه هذا على الفور: «ليس من عادتنا الأكل في حجرة خاصة بل في القاعة مع الضيوف» وخرج بعد هذا الأخ إلى خارج القاعة، وذهب إلى راعي

الدير، وأعلمه بوصول الضيوف، فأمره الراعي بتحضير كلّ شيء ضروري وإعداد المائدة، ووعد بأنه سيأكل معهم في الحجرة، وبناء عليه عندما جاء الراعي إلى المائدة أمر الأخ بجلب الضيوف.

وذهب الأخ إلى القاعة، لكن الضيوف الذين تركهم فيها قبل وقت قصير، لم يجدهم، فذهب يفتش عنهم في الغرف الداخلية وفي مختلف الأماكن، فلم يعثر على أحد منهم مطلقاً، وركض إلى هنا وهناك في فناء الدير آملاً في لقاء الرجال، وقال له رجل هناك بأنه شاهدهم يذهبون نحو الكنيسة ومقبرة الاخوان، فبادر مسرعاً بارسال رسول إلى هناك، لكن الرسول لم يعثر على أحد منهم، وسئل حفظة الأبواب عن الضيوف فقالوا إنهم لم يشاهدوا مثل هؤلاء الرجال يدخلون من الأبواب أو يخرجون منها في ذلك اليوم، وفي الحقيقة: من كان أولئك الرجال، وكيف جاءوا، وإلى أين ذهبوا؟ يبقى هذا سراً غامضاً حتى اليوم.

ونحن لانشك في حكاية الأخ الذي رآهم وتحدث معهم، لأننا نعرف حياته وضميره، فلقد أخبرنا مراراً بهذه الحكاية، حتى في أثناء مرضه الكبير الذي أخذه من هذا النور، وقد تحدث عنهم ببساطة، لأنه كان راوياً للحكايات بسيطاً، يستخدم كلمات قليلة، ولايظهر أي تفاخر في كلماته أو أفعاله.

سنة اثنتين ومائتين وألف

أبرم في سنة اثنتين ومائتين وألف سلام بين فيليب ملك فرنسا وبين جون ملك انكلترا، لكن الملك قام على الفور بحملة قتالية حادة على كونت لى مارشي، الذي اسمه هيوج ويعرف بلقب البني، وعلى أخيه كونت ابن Eu اللذان ثارا ضده، بسبب زواجه من ايزابلا أوف

أنغوليم.

وأمر الملك فيليب جون مراراً أن يتمنع عن اثارة رجاله، وأن يقيم معهم تسويات سلمية، ولكن لعدم مراعاة جون لأوامر فيليب، ومطالبه، جرى استدعاء ملك انكلترا هذا من قبل نبلاء مملكة فرنسا بحكم كونه كونتاً لأكوتين وأنجو، وطلبوا منه الحضور إلى بلاط محكمة مولاه، ملك فرنسا، في باريس، وكان عليه الخضوع لحكمهم والاجابة على أخطائه، والاستجابة للتعامل مع القانون، حسبما يقرر رفاقه في المراتب الاقطاعية.

وعلى كلّ حال، رد ملك انكلترا أنه دوق نورماندي، وليس مرغماً بأي حال من الأحوال على الحضور إلى البلاط للمحاكمة في باريس، وهو يرغب فقط بالتشاور مع الملك حول موضوعات الحدود بين المملكة والدوقية، فهذا متفق عليه بين الدوق والملك منذ زمن قديم، ومؤكد بوثائق أصلية، وناقش الملك على كلّ حال هذا الموضوع وبين أنه ليس من العدل مطلقاً أنه بسبب أن الرجل هو كونت أكوتين ودوق نورماندي ينبغي ألا يفقد حقه في أكوتين.

واستمرت هذه المناقشة طويلاً، وظهرت مشاكل جديدة من يوم إلى آخر، ومع الأيام تراكمت المشاعر العدوانية على الطرفين، وأضيف إليها تهديدات عنيفة.

وبعد وقت طويل اجتمع البلاط وحكم بوجوب انتزاع جميع الأراضي التي تملكها ملك انكلترا مع أجداده من الملك الفرنسي، لأنهم لم يقدموا لها منذ زمن طويل أية خدمات تقريباً، ورفضوا اطاعة مولاهم، وبناء عليه قبل الملك فيليب مسروراً بالحكم الذي صدر عن بلاطه ووافق عليه، وجمع جيشاً وهاجم على الفور قلعة بوتفانت Boutavant التي بنيت من قبل الملك رتشارد في نورماندي واجتثها من على وجه الأرض، ثم استولى على جميع أراضي هيوج دي غورني Gournay وعلى جميع

القلاع المجاورة، ثم استولى على كونتيه وقلعة أوميل Aumale وكونتيه إيو Eu وجميع الأراضي حتى اركوي Arques ولم يواجه أية مقاومة.

وعندما بلغ آرثر، ابن أخي الملك جون، السادسة عشرة من عمره، رسم فارساً من قبل الملك فيليب وخطّبه ابنته الصغرى، وبناء على نصيحة مؤذية واقتراح من قبل بعضهم، أعلن العصيان على عمه، واتبع النصائح الشريرة المتعجلة، فانطلق مع هيوج البني وغيوفري أوف لوزغنان ومائتين وخمسين جندياً لحصار قلعة ميربو Mirebeau حيث كانت جدته، الملكة إليانور مقيمة مع رجالها، وخشية من الملكة أن تقع بالأسر، أمرت ابنها جون أن يجلب إليها العون بأقصى سرعة ممكنة.

وانطلق الملك على الفور إلى هناك مع جزء من جيشه، وكان الثوار قد دخلوا إلى البلدة وأغلقوا بالتراب جميع أبوابها باستثناء باب واحد، وانتظروا وصول الملك وهم قد أحكموا الدفاع عن أنفسهم، وكانوا أيضاً مطمئنين وواثقين بحشدهم من الفرسان المدربين والسيرجندية، وبعد قتال شديد دخل الملك إلى المدينة، واستطاع على الفور، بإرادة من الرب أن يأسر جميع أعدائه الذين تجمعوا هناك، فقد أسر ابن أخيه آرثر، والكونت هيوج وغيوفري أوف لوزغنان، ومائتين وخمسين من خيرة الفرسان، وبذلك حرر أمه ورجالها من المحاصرين.

وكان الملك فيليب يحاصر قلعة آركوي منذ زمن طويل، وعندما كان على وشك الاستيلاء على القلعة، وصلته أخبار أسر آرثر والآخرين، فأبعدته عن الحصار، وعاد إلى فرنسا، مغضباً كثيراً لسوء الحظ الذي حلّ برجاله.

واستولى بعد هذا الملك جون على بلدة تور بالقوة، وعلى قلعة فيليب

هنـاك عنوة، وألقى فيهـا النـار فأحرق كلّ تلك المدينـة الجميلـة تقريبـاً، وكسب بسبب عملـه هذا كـراهية سكان تـور ونبلاء تلك المنطقـة، ولكي يأسر خصومه أحرق أيضاً مدينة لامانس.

وسجن الـذين أسرهم في ميربـو، وبعث بهم إلى أماكـن مختلفة، وبعـد هزيمته فيما بعد، وبناء على طلبـات الرجاء من بعض النبلاء والتماساتهم، أطلق سراح الكونت هيـوج البني وغيوفري لوزغنـان مع آخرين أسرهم في ميربو، لكن ذلك كان بعدما سلموه قلاعهم ورهائن، وأقسموا اليمين ألا يثوروا ضـده، وعلى كلّ حال هم لم يحفظـوا يمينهم لوقت طـويل، وبدأوا يقـاتلـون الملك بحـدة أعظم من ذي قبل، والتحقت بهم جماعـات كثيرة من أعدائه.

وتقـدم وليم دي روشي، وكـان عضـواً قـويـاً بين مجمـوعـة النبـلاء الأنجيفيين، ومعه نبـلاء آخريـن من بريتـاني، تقدموا بـالرجـاء إلى الملك ليسلمهم آرثـر الـذي كـان محتفظـاً به بـالسجن تحت حـراسـة مشـددة، وعندما رفض جـون، تآمروا جميعاً، وأعلنوا معاً الثـورة ضده، وجمعوا جيشاً كبيراً من المنـاطق المفترض أنها تحت سلطـة الملك، وعـاثـوا فسـاداً في البلاد، وسلبوا وأحرقوا، وهاجموا عدداً كبيراً من القلاع.

وعنـدما حـدث هـذا تخلى عن الملك عدد كبير من الـرجـال الأقويـاء والتحقوا بـرفاقهم النبـلاء، وكان من بينهـم: روبرت كونـت أوف ألنكون Alencon وفيزكونت أوف بيمـونت، ووليم أوف فوجري Fougeres وبريتانيين آخرين، واستولوا على قلعة أنغر مع البلدة كلها، وبوقت قصير استولوا على عدد آخر كبير من الأماكن الحصينة.

ولاحظ المستشـارون لدى الملك أن البريتـانيين كانوا يسببـون كثيراً من التخـريب، ويثيرون الفتن في كلّ مكان لصـالح مـولاهم آرثر، ورأوا أنـه من غير الممكن تحقيق سلام ثابت مادام آرثـر حياً، فاقترحوا على الملك أن

يأمر بسمل آرثر وخصيه، وبذلك يتحول إلى عاجز عن الحكم، وبموجب ذلك سوف تتوقف المعارضة، وتقلع عن برنامجها بالتدمير وتخضع للملك.

وازداد غضب الملك جون نتيجة الهجمات غير المتوقفة لأعدائه، وشعر بالأذى من تهديداتهم وأفاعيلهم المضرة، وفيما كان في حالة من الغضب الشديد والحنق العظيم، أمر ثلاثة من خدمه أن يذهبوا إلى فالي، وينفذوا الفعل الكريه، ومقت اثنان من خدمه تنفيذ مثل هذا العمل الشرير ضد شاب نبيل مثل آرثر، فهربا، أما الثالث الذي لبس ثلاثة خواتم حول قدمه، فقد توجه إلى القلعة التي وضع فيها الشاب الملكي تحت حراسة شديدة تولاها الحاجب الملكي هيوبرت دي بيرغ، وعندما أعطى أمر الملك إلى هيوبرت ثار حزن عظيم وأسف كبير بين الذين كانوا يتولون حراسته، وانفعلوا بشدة ورحمة نحو الشاب النبيل.

ولاحظ آرثر الحكم الذي أصدره عمه ضده، وخشية منه على سلامته، انفجر باكياً، وشرع يتشكى ويندب نفسه بشكل محزن جداً، وظهر الرجل الذي أرسله الملك لتنفيذ هذا العمل وجعل نفسه معروفاً من قبل الشاب الذي كان يبكي نفسه ويندبها، وتوقف آرثر فجأة عن الأنين، ونهض ومدّ بعنف يديه وأمسك بهما الرجل لينتقم منه، وشرع يدعو الفرسان الذين كانوا هناك بصوت منتحب وقال:

«أيها السادة الأعزاء، دعوني من أجل محبة الرب قليلاً لأنتقم من هذا الشرير، لأنه آخر من سأراه في هذا العالم».

وفي سبيل تهدئة هذه الضجة نهض الفرسان مسرعين وأمسكوا بيديه، وقاموا بناء على أمر من هيوبرت، باخراج الشاب الذي جاء من الحجرة، وبهذا الطرد وبكلمات تهدئة قيلت لآرثر من الذين وقفوا من حوله، ارتاح آرثر قليلاً، لكن بقلب حزين.

ونظر هيوبرت حاجب الملك إلى أمانة الملك وسمعته، وكان يتوقع منه

العفو، لذلك احتفظ بالفتى دونما أذى، واعتقد أن الملك سيندم على الفور لإصداره هذا الأمر، وسيكره بعد هذا إلى الأبد كلّ من بادر إلى اطاعة مثل هذا التصرف الشرير، فقد اعتقد هيوبرت أن الأمر جاء نتيجة غضب مفاجيء ولم ينجم عن تقديرات هادئة.

ورغبة من هيوبرت في تسكين غضب الملك جون، وفي الوقت نفسه ايقاف وحشية البريتانيين أعلن في أرجاء القلعة وفي المنطقة كلها بأن الحكم قد نفذ، وأن آرثر توفي لشدة حزنه ومن الآلام الحادة التي نجمت عن جراحه، وانتشرت الأخبار ودارت كلّ مناطق المملكتين خلال أسبوعين، ثم بدأت النواقيس تضرب، وكان ذلك من أجل روحه، ووزعت ملابسه على بيوت المجذومين، كما وأعلن أن جسد آرثر قد حمل إلى الدير السسترشياني المسمى سينت أندري —ان— غوفرن Andre -en- Gouffern في نورماندي، ودفن هناك.

ولدى سماع هذه الأخبار لم يخضع البريتانيون، بل ازدادوا غضباً أكثر فأكثر، وكانوا أكثر تدميراً من ذي قبل حيثما أمكنهم، وأقسموا أنهم من الآن فصاعداً لن يتوقفوا عن حرب الملك الانكليزي الذي اقترف مثل هذه الفعلة الشنيعة بحق سيدهم، الذي هو بالوقت نفسه ابن أخيه، واستدعى هذا ضرورة الإعلان أن آرثر الذي قيل في كلّ مكان أنه مات، هو مايزال حياً، وهكذا هدأ غضب البريتانيين قليلاً.

وعندما أخبر جون بما حدث، لم يغضب لبعض الوقت، لأن أوامره لم تنفذ، حتى أن بعض الفرسان قالوا له بأنه لن يكون بإمكانه من الآن فصاعداً تأمين قوات تتولى حراسة قلاعه، فيما لو أنه نفذ حكمه في آرثر، لأنه إذا صدف ووقع أي فارس في أيدي ملك فرنسا، فإنه سيتلقى على الفور المعاملة نفسها بلا رحمة.

كان هناك في هذه السنة زلزال كبير في منطقة القدس، لم يعرف مثله

منذ آلام ربنا، وتعرضت مدينة صور الجميلة للهزات الأرضية، وقتل جلّ سكانها، وتهدمت هي كلها تقريباً، كما تهدم ثلث عكا مع قلاعها وأبراجها، ولحق الدمار بعدد من القلاع الأخرى لدى المسيحيين والمسلمين سواء، وأثرت الزلازل على عدد من الأماكن في انكلترا، وكانت هناك صواعق مرعبه، وبروق، وبرد متقطع ورياح قوية خلال شهر آب.

سنة ثلاث ومائتين وألف

كان في نيسان من سنة ثلاث ومائتين وألف فيضان غير متوقع سبب كثيراً من الأضرار في انكلترا كلها، وحدث هذا بشكل اعجازي، لأن ما تقدم على هذا الغمر هطول قليل من المطر.

وأخذ آرثر من فالي إلى روان، وسجن داخل القلعة، تحت حفظ روبرت دي فوكسبونت Vieuxpont وعلى الفور أمر فيليب ملك فرنسا مع البريتانيين الملك جون، ملك انكلترا، أن يطلق سراح آرثر ويسلمه إليهم، وأعدوا له عدداً كبيراً من الرهائن، وأضافوا تهديدات قاسية إلى هذه الأوامر.

وعندما رفض جون، هاجم فيليب مجدداً قلاع نورماندي، وبين أشياء كثيرة استولى على جزيرة لاس أندلاس مع قلعتها، وعلى فودريل Vaudreuil حيث كان قد تمركز عدد كبير من النبلاء لحفظها، أذكر منهم خاصة:

روبرت فتز وولتر مع فرسانه، وسير دي كونسي Saer de Quincy مع رجاله، واستولى أيضاً على كمية كبيرة من العتاد الحربي، ولم يقم

هـؤلاء الــرجـال أدنى اعتبــار إلى شجـاعتهم المعتــادة ولا إلى مسلكهم العسكـري، ولأنهم لم يتوقعـوا تلقي أية مسـاعـدة، لم يقومـوا بأية محاولـة للـدفـاع، وكأنهم بـلا قـوة، فقـامـوا بتسليم أنفسهم مع قلعتهم إلى ملك فـرنسا، وقـد جـرى فـداؤهم مقابل مبلغ كبير مـن المال، هو خمسـة آلاف مـارك استرليني، ولقد تعـرضوا لسخـريـة ولإهانـة الشعب في المملكتين، بسبب هذا، ولطخوا بذلك شرفهم.

استولى بعـد هذا الملك فيليب على شاتـو غيلارد Chateau Gaillard التي بدت لاترام، وكـانت قد بُنيت من قبل الملك رتشارد الأول، ملك انكلترا مقابل نفقات عـالية قرب لاس اندلاس على نهر السين، على الـرغم من معارضـة رئيس أساقفـة روان، لأن تلك الأرض كانت عـائدة لـه، وكان القـائد العسكري لتشستر في القلعـة مع عدد كبير من مشـاهير الفرسان والسيرجنـدية، وقد حافظ على القلعة بكل فاعليـة لوقت طويل، وصمد في وجه قـوة كلّ جيش الملك الفرنسي، لكن عندمـا باتت الحامية بحاجة ملحـة لمؤن الأطعمة لم يعد بإمكان عناصرها الاستمـرار في مقاومة الأعـداء، وفي الحقيقــة لم يكن الملك جـون راغبـاً في ارســال قـوات إلى المحـاصرين لأنه كـان يخشى دوماً من خيـانة رجـاله، وعبر في الشتـاء في شهر كانون الأول إلى انكلترا حيث ترك النورمان في قلق عظيم وخوف.

ثم تـولى بالواقـع إيقاع الظلم والتشـديد على انكلترا، بمطـالبه الكثيرة للمال، حيث أمل في حشـد جيش كبير يتمكن بـواسطتـه من محق قـوات الملك فيليب.

سنة أربع ومائتين وألف

توفيت الملكة إليـانور في هذه السنة، وكان ابنة كونـت بواتو، وكان أول

أزواجها الملك لويس السابع ملك فرنسا، ثم تزوجت هنري الثاني ملك انكلترا.

أفقدَ موت إليانور جون مؤيداً صاحب نفوذ رهيب، وناصحاً كبيراً.

عقد الملك جون في منتصف الصيام مجلساً للتداول، وقرر أن يرسل سفراء إلى ملك فرنسا هم: رئيس أساقفة كانتربري، وأسقف نوروك، وأسقف إيلاي، والإيرل وليم مارشال وإيرل لستر، وكان عليهم معرفة نوايا الملك الفرنسي، وليبحثوا معه في عقد معاهدة سلام معه، وأعلن الملك الفرنسي عن استعداده لعقد معاهدة سلام إذا توفر شرط واحد هو: إذا أطلق سراح آرثر وسلم إليه حياً، فقد أمل فيليب أنه إذ مااكتشف أن آرثر كان ميتاً، وقتها يمكنه أن يزوج أخته وبذلك يحصل على ممتلكاتها في القمارة، وعليه لم يكن الملك فيليب راغباً في اقامة السلام، لأنه كان واثقاً أنه سيتمكن حالاً من تملك جميع أراضي الملك الانكليزي.

وفي هذه المرحلة لم يكن لجون أولاد، وكان إذا ماتوفي فسوف ترث أخت آرثر أراضيه.

ولهذا اقترح الملك فيليب دوماً شيئاً محرجاً، أو غير ممكن، وكان هذا دأبه خلال المناقشات، فقد أراد إلحاق العار والذل بالملك جون، وأن يلغم عزته الملكية وينسفها، وأظهر دوماً غضبه بشأن وفاة آرثر، الذي سمع بأنه أغرق في نهر السين، ولهذا أقسم أنه لن يتوقف عن إثارة الحرب ضد جون حتى يحرمه من مملكته كلها.

وحشد فيليب في أيام عيد الفصح جيشاً، وحاصر قلعة فالي، التي مالبث أن استولى عليها بدون مقاومة، ثم وصل إلى كين aen: وبسلام تسلمها من قبل السكان هناك، واستولى بعد هذا على كام

المنطقة حتى بارفلور Barfleur وتشير بورغ Cherbourg ودومفرونت Domfront واشترى سكان روان وفيرنول Verneuil والذين يتولون حراسة قلعة آركوي Arquesهدنة أربعين يوماً من ملك فرنسا، حتى يكون بإمكانهم ارسال رسل إلى الملك الانكليزي لمعرفة قراره، لأنه إذا كان مولاهم غير قادر على مساعدتهم، أو غير راغب بذلك، وقتها يمكنهم الاستسلام إلى سلطان الملك فيليب بدون صراع عنيف.

وبعثوا على الفور برسلهم إلى انكلترا، ببعثة فيها مافيها من التعاسة، وطلبوا من الرسل أن يبينوا الحالة التعيسة في نورماندي، وأن يطلبوا منه القيام بانقاذهم، ومهما يكن الحال، لم يعطهم الملك جون العون لأنه خاف من خيانة بعض رجاله، وعاد الوفد حزيناً وقلقاً، وهكذا استسلمت مدينة روان التي لم تقهر بعد، واستسلم سكان فيرنول وآركوي معاً إلى الملك فيليب.

وهكذا خضعت في وقت قصير لسلطان الملك فيليب: نورماندي العنيدة، وأنجو، وبريتاني، ومين، ومقاطعة تور، وحدث هذا كله وفاقاً مع نبوءة ميرلين Merlin التي قالت في هذه السنة: «سوف يفترق السيف عن الصولجان»، أي ستنفصل نورماندي عن مملكة انكلترا، فقد مكث ملوك انكلترا دوقات لنورماندي لمدة مائة سنة وتسع وثلاثين سنة، من أيام الدوق وليم الذي استولى على انكلترا، حتى الملك جون الذي فقد هذه الدوقية مع الكثير من أراضي ماوراء البحار.

وكان طوال هذا الوقت هناك صراع عظيم فيما بين البواتويين وبين الأكوتينيين، فقد كان الأول مخلصين للملك جون تحت قيادة روبرت ثورنهام Tjornhamفي حين كان مع الآخرين وليم دي روشي والكونت هيوج الذي غزا أراضي الملك جون، وكان الملك فيليب بمساعدتهم قادراً على الاستيلاء على كلّ بواتو تقريباً، باستثناء روشل

Rochelle التي صمدت بشجاعة ضد كلّ انسان لمدة سنة، ومثلها كانت قلعة شينون Chinon مع هيوبرت دي بيرغ فيها، فهي لم تستسلم إلى أعدائها طوال ذلك الوقت، وقاوم جيرارد دي آثي Ath-ee شحنة قلعة لوشي، بشجاعة ووقف ضد الثوار.

وساند الغسكونيون الملك الانكليزي، وأعطى الملك جون إلى موريف Moreve وكان واحداً من الغسكونيين، مبلغاً قدره تسعة وعشرين ألف مارك ليحشد جيشاً قوامه ثلاثين ألفاً، يتوجب قدومه لدى طلبه من قبل الملك جون، عندما سوف يعبر البحر، وكان رئيس أساقفة بوردو، وهو راهب مورافي، موجوداً في انكلترا للبحث في هذا العمل، وليعمل بمثابة رهينة مقابل المال.

وبنى الملك جون ديراً في نيوفورست حمل اسم بيولو Beaulieu وجلب إليه ثلاثين راهباً من رهبانية سيتو Citeaux.

جرى خلع ألكسيوس الامبراطور الضعيف للقسطنطينية من قبل قريبه مرزوفلوس، الذي أعلن عن نفسه امبراطوراً، وقام بقتال الجيش الغربي في عدد من المناسبات، وفي ردة فعل ضده وانتقاماً منه نهب الصليبيون القسطنطينية.

قامت القسطنطينية على مثلث من الأرض، طول الضلع فيه ستة أميال، وقالوا بلغ محيط المدينة ثمانية عشر ميلاً، وهذا معناه أن المسافة من زاوية إلى زاوية كانت ستة أميال، وكان ارتفاع الأسوار خمسين قدماً، وكانت هناك أبراج على طول الأسوار بين البرج والبرج الآخر عشرين قدماً، وكان أشهر القصور الامبراطورية في المدينة اسمه بلاشرين، ثم قصر قسطنطين وقصر بوهيموند، واحتوت المدينة على كنيسة لانظير لها اسمها آيا صوفيا، بناها جستنيان، وقيل دوماً بأن معيار بنائها مع

تـزييـنـاتها رائعة إلى درجـة لايمكن تصـديقهـا، ومنح الأباطـرة الكنيسـة إيرادات كثيرة، ووضعـوا فيها تسعمائة وخمسين كـاهناً، ومن المؤكـد القول على عهدة الذين عـرفوا المدينة، أنه كان فيها من السكـان أكثر مما عاش بين مدينة يورك ونهر التيمز.

وعندما تم الاستيـلاء على المدينة، وهرب الامبراطور مـرزوفلوس، جرى اتفاق عام على اختيـار بلدوين كونت فلاندرز امبراطـوراً، فقام على الفور بكرم منـه فوزع ثلث مـاكان من مال في الخزانـة الامبراطوريـة، الذي بلغ مليوناً وثمانمائة مـارك فضي، وزعه بين الأمراء اللاتين والجيـش، وبدا هذا المبلغ الضخم من المال مثلـه مثل أي شيء تعلق بثروات الاغـريق، ومثل أبنية المدينة وآيا صوفيا، أمـراً لايصدق، لأن الذين عادوا من تلك المدينة قالوا بأن الـدخل اليومي للامبراطور هـو ثلاثين ألف بيربري Perpres والبيربـري هـو بنس ذهبي يسـاوي ثـلاث شلنـات من الفضـة، كما منح أيضاً بكـرم الأمراء وآخرين كانـوا معه مناصب رفيعـة وتشريفات، وكثيراً من الأعطيات الثمينـة، وبعث إلى الملك فيليب الذي كـان من قبل مولاه قطعة مـن العقيق، وكانت من أثمن المجـوهرات، يمكنهـا اضاءة القصر كلـه بأشعـة براقـة حمراء، وثـوبين ملكيين نسجا بـالـذهب بشكل رائع، وأحجار كريمة.

هناك في القسطنطينيـة عمود، بني في العصـور القديمـة من قبل واحد من رجال الكنيسة، حيث استخدم فنوناً ميكانيكية، فقد قيل بأن قاعدته بحركـة دائمة، وفي أعـلاه تماثيل ثلاثة أبـاطرة، ينظـر أحدهم نحـو آسيا، وآخر نحـو أوروبا، وثـالث نحو أفـريقيا، وهنـاك اطار فـوق التماثيل كتب عليه بـالاغريقيـة بأنه بعـد أن يحكم ثلاثـة من الأباطـرة اسم كلّ منهم ألكسيـوس بـلاد الاغريق، ستصل مملكـة الاغـريق إلى نهايتهـا، وستنتقل الامبراطوريـة إلى أيدي شعب غريب، ووقف على رأس الاطـار تمثال رابع جـاء فوق الجميع، وهـو أكثر عظمـة، وأعظم سمواً من التماثيل الأخـرى،

وقد نظر نحو العالم الغربي ومدّ يديه نحو الغرب.

سنة خمس ومائتين وألف

كان الشتاء في سنة خمس ومائتين وألف شتاء قاسياً، وتجمد النهر، لذلك بات بإمكانك عبور نهر التيمز على الأقدام، وكانت الأرض قاسية لم يمكن فلاحتها من عيد الختان في الأول من كانون الثاني حتى عيد البشارة في ٢٥آذار، وفي الحقيقة لحق التلف بالموسم الشتوي كله تقريباً بسبب شدة البرد، وبادر الناس بسرعة إلى اقتلاع الخضار النامية، وحدثت مجاعة كبيرة في جميع أرجاء انكلترا، ولهذا بلغ ثمن بوشل bushel القمح الواحد [٨-غالون] ماركاً واحداً، وهو ماكان يكلف في أيام الملك هنري الثاني ١٢بنساً، وبات ثمن المقياس الواحد من حبوب الفاصولياء والبازلاء نصف مارك، وبلغت تكلفة البوشل الواحد من الشوفان ٤٠بنساً، وهو ماكنا اعتدنا على شرائه بأربعة بنسات، وصارت النقود رديئة إلى درجة كبيرة وفاسدة بسبب قصقصتها وتقطيعها [إلى أنصاف وأرباع] حتى بات من الضروري تجديدها هذه السنة.

ووقع الآن بالأسر روبرت ثورنهام الذي صمد بشدة أمام الثوار البواتويين، والذي تولى أسره هو جيش الملك الفرنسي، وحدث الشيء نفسه لجيرارد دي آثي، فقد سقط مع قلعة لوشي التي دافع عنها بشجاعة كبيرة لمدة طويلة.

وقرر الملك جون، الذي كان قلقاً جداً، مع أنه أخفى حزنه وأسفه، أن يعبر البحر مع جيش كبير بغية استرداد الأراضي المفقودة، وكان قد ربح إلى جانبه نبلاء بواتو وغسكوني من خلال وعود سرية، وتلقى التحريضات بشكل مستمر من بعض نبلاء نورماندي، الذي تشكوا

بحرقة من طغيان الملك الفرنسي.

وبناء عليه عقد الملك جون بعد عيد الفصح مجلساً استشارياً في نورثأمبتون، ثم عبر البحر من بروشستر مع جيش كبير وجيد، والتحق به هناك حشد من السفن جاءت من عدد كبير من المراسي، وبعدما جرى توزيع السفن التي وصلت. على كلّ واحد من النبلاء، خصصت سفن للأطعمة، والعتاد، وحملت أخرى بمختلف أنواع الأسلحة، وعندما حلّ اليوم الذي باتت فيه السفن جاهزة للاقلاع، إذا برئيس أساقفة كانتربري والإيرل وليم مارشال قد عادا من بلاد ماوراء البحار، وذهبا إلى الملك لاقناعه بأي ثمن ممكن ليتخلى عن الحملة.

ووضعوا أمامه مخاطر كثيرة يمكن أن تنجم عن عبوره: سيكون من الخطر جداً انزال القوات بين الأعداء من دون تأمين قاعدة، وسيكون بإمكان الملك الفرنسي قيادة جيش أكبر ضده، وبذلك يمكنه غزو البلاد كلها، وسيكون من الخطر الاعتماد على البواتويين المرائين والمتقلبين، الذين اعتادوا دوماً على التخطيط لعمل تآمري ضد أمرائهم، وسيكون بإمكان كونت بولون Boulogne مع شركائه غزو انكلترا إذا ماسمع أنها فارغة من قادتها ومن جيشها الشهير، وسيكون هناك خوف عظيم من أنه سيخسر الذي بين يديه من الأراضي وهو يحاول استرداد مافقده، خاصة وأنه لم يترك خلفه وريث واضح للمملكة، يمكنه أن يتسلم حكومة المملكة إذا ماحدث شيء سيء له في بلاد ماوراء البحار. ومع أن الملك سمع هذه الحجج وغيرها لم يكن من الممكن اقناعه بالتخلي عن خططه بالذهاب إلى ماوراء البحار، وأمسكه رئيس الأساقفة والإيرل وليم من ركبتيه وتعلقا به خشية أن يتخلص منهما، وأصرا على أنه إذا لم يصغ لما طرحاه ويأخذ به سيمنعانه بالقوة، خشية أن تقع المملكة في لجّة من الفوضى بسبب مغادرته.

وجاءت الضغوط إلى الملك من جميع الجهات، فمن جانب كان هناك

العار فيما لو تخلى عن خطته، وكانت هناك من جانب آخر الطلبات الملحة له بالبقاء، وسأل رئيس الأساقفة وهو يبكي وينوح عن رأي يكون عملياً أكثر لصالح المملكة وللحفاظ على سمعته الملكية، وكيف يمكنه تأمين المساعدة للذين كانوا ينتظرونه فيما وراء البحار، وعقد رئيس الأساقفة مجلساً استشارياً قرر وجوب إرسال بعض النبلاء الانكليز مع قوة معتبرة من الفرسان الأشداء، لتكون طليعة لقدوم الملك.

وبعدوقت طويل اقتنع الملك مكرهاً بالبقاء وأخبر لورداته وفرسانه بالعودة إلى ديارهم، وطلب أن يحاسبوا على المبالغ التي دفعت في سبيل العبور، وعاد هؤلاء الرجال، الذين تحملوا الكثير من المصاعب، وأنفقوا نفقات عالية في هذه المناسبة، إلى ديارهم وهم ساخطون كثيراً، ومعهم أحمال الأطعمة التي جمعوها، ولعنوا رئيس الأساقفة والمستشارين الآخرين الذين أعطوا الملك مثل هذه النصيحة السيئة، حسبما بدت لكثيرين، وكان هذا صحيحاً بشكل خاص بالنسبة للبحارة الذين قيل بلغ تعدادهم أربعة عشر ألفاً، فقد جلبوا سفنهم من أماكن نائية، وانتظروا عبثاً لبعض الوقت، مع متاعب كبيرة، ونفقات عظيمة، وذلك في سبيل العبور، فلقد قيل إنه لم يجتمع قط مثل هذا العدد الكبير من السفن للابحار من ميناء انكليزي للجواز، ولم يحشد أبداً جيش أكبر في انكلترا فيه فرسان أشداء متشوقين للجواز مع الملك، فقد وصلت أخبار قدومهم إلى بلاد ماوراء البحار، فأوقعت الرعب في قلوب الفرسان الفرنسيين في نورماندي، حتى أن بعضهم تخلى عن القلاع والبلدات القريبة من البحر، وطلبوا السلامة في الفرار.

وعلى كلّ حال توجه الملك من ساحل البحر إلى ونكستر وهو حزين جداً، فقد استولى عليه الأسى وشعر بثقل في قلبه حمله في اليوم الذي تلا عودته من الشاطىء، على الابحار إلى جزيرة وايت Wight وظلّ هائماً على وجه البحر يمضي إلى هنا وإلى هناك لمدة يومين، وفي تلك الأثناء

كان رفاقه يحاولون ثنيه عن عبور البحر من دون الجيش الذي فرقه.

أما الذين مكثوا على البر فقد اعتقدوا مرجحين بأن الملك قد عبر، وأن أخباره انتشرت في جميع أرجاء المملكة، وعبر وقتها إيرل سالسبري، وهو أخو الملك، ومعه كثير من الفرسان، ووصل إلى روشيل Rochelle وكان قد عبر قبله بقليل غيوفري، الذي كان ابناً للملك جون من خلال خليلة، ووصل مع عدد كبير من الفرسان.

أما ماكان جرى جمعه من مبالغ مالية ضخمة، وحجم المؤن التي احتيج إليها في إعداد السفن، والأغذية التي جمعت والمخازن ليس من السهل تعداده.

وكان خلال ليلة عيد القديس يوحنا المعمدان في ٢٤ حزيران، رعد مخيف وبرق قدم من السماء عبر انكلترا، وضرب مخلوق عملاق مرعب (تنين) بالبرق في كنت، قرب ميدستون Maidstone مع صوت تدمير كبير، وقد تبين أن له رأس أتان، وأمعاء انسان، أما أطرافه العملاقة الأخرى فلم تكن تشبه أطراف أي مخلوق آخر من أنواع الحيوانات، ونادراً ماتجرأ أحد على الاقتراب من جسده الأسود، الذي احترق بالبرق، وذلك بسبب الرائحة التي لاتحتمل التي صدرت عنه.

وفي ٢٩ تموز كان هناك رعد وصواعق مرعبة مماثلة، وأصوات صدرت عن تلاقي البروق من خلال اصطدام الغيوم فوق جميع أرجاء انكلترا، وكانت مرعبة إلى حد أن كثيرين اعتقدوا أن يوم القيامة قد جاء، وغدا أناس كثر وحيوانات بلا عقل تقريباً بسبب الخوف، وملأ الرعب والنذر المملكة بأسرها، وهلك رجال ونساء في كثير من المناطق بسبب اصابتهم بالصواعق، وأصيبت حيوانات أيضاً، وضربت بيوت وأحرقت، وأتلفت محاصيل بالبرد النازل الذي كانت في بعض الأماكن حباته كبيرة بقدر بيض الأوز، واجتثت أشجار من جذورها وحملت بعيداً، وبرم بعضها

مثلما يبرم الحبل، وانشطر بعضها إلى قسمين.

وفي اليوم التالي شوهدت آثار أقدام عملاق مرعب في عدد من الأماكن، وكان من النوع الذي لم ير من قبل أبداً، وقال الناس إنها آثار أقدام شياطين أرغمت على الفرار إلى هنا وهناك بقوة الصواعق الصادرة عن الملائكة الجيدين، كما قال أرميا في الوصايا، فقد صبّ الملائكة الطيبون غضبهم على القدماء بالشهب والقذائف، وبذلك حموا السماء بوساطة الصواعق والبرق المتصادم، وبرزاز من النشاب دمروا العدو، وأرغموه على الالتجاء إلى ظلمات باطن الأرض، لأن الملائكة امتلكوا قوى نارية على رؤوس أصابعهم، بإمكانهم بوساطتها احراق الحجر وتفتيته إلى قطع صغيرة، واقتلاع الأشجار وجرها، ومهما بلغت قوة تفجر غضب الانسان، إن آلافاً من الناس يمكن أن تموت بضربة واحدة من ملاك واحد، وهذا مايمكن للفلاسفة أن يناقشوا حوله أكثر من سواهم.

وغادر هيوبرت المبجل، رئيس أساقفة كانتربري، كانتربري مع جماعته، وقصد بوكسلي لإرساء السلام فيما بين رهبان روشستر وأسقفهم، وعانى أثناء سفره من مرض مزدوج تمثل بالحمى والقرحة، لذلك قصد عزبته في تاينهام، وهناك، بعد مضي أربعة أيام، أنهى حياته يوم ١٣ تموز، فقد قصم المرض ظهره عند الفقرة الثالثة من عموده الفقري، وهو ماكان يخجل في أن يريه للذين كانوا معه في حجرته لأن أعضاءه الداخلية كانت ستظهر.

والدرس المستفاد من قرحته الخطيرة، والذي يمكن تعلمه هو أن المريض إذا ماشعر بآلام في الصدر أو بدأ بالتعرق، فهذا معناه أنه في خطر الموت، ومن الممكن معالجة هذا الداء بوساطة مزج قدر متساوي من صفار البيض والملح، ووضعه على موضع الداء، وتجديده باستمرار، وينبغي أن يأكل المريض الخبز والماء حتى يبرأ جسده، وانتبه عندما تخرج الدم، خشية أن ينتشر المرض بين العروق، ولو أن رئيس الأساقفة لاحظ

الداء مبكراً وبسرعة، لكان بإمكانه استخدامه هذا العلاج، الذي لايخفق حسبما أخبرني الأطباء.

وصف كوغشال بعد هذا موت رئيس الأساقفة بالتفاصيل، لكن تاريخه انحرف عندها ليروي سلسلة من المواد الحولية، وتناول الرواية جيرفاس، الذي كان راهباً في كانتربري، والذي حياته الدرامية وروايته الحيوية مشوبة بتكريسه نفسه لكاتدرائيته الرهبانية.

في ١٢ تموز مات رئيس الأساقفة هيوبرت، وبعد ثلاثة أيام بادر الملك جون مسرعاً إلى كانتربري، وتحدث بلطف زائد مع الرهبان حول استخلاف رئيسهم وأعطاهم بعض الأمل، أن باستطاعتهم اختيار واحد من كنيستهم، وعندما سمع أن رئيس الأساقفة الشهير والنبيل قد ترك لهم بيعة محمولة في وصيته تساوي ثلاثمائة مارك [٢٠٠-جنيه] سأل بهدوء رؤيتها، وعندما رآها حملها إلى ونشستر، وأعطى إلى أسقف ونشستر ماكان أخذه من كنيسة المسيح، وبعد هذا سأل رئيس رهبان ورهبان كانتربري ألا يقوموا بالانتخاب قبل عيد القديس أندرو، في ٣٠ تشرين الثاني، وقد وافقوا على طلبه.

وبعث الملك بالوقت نفسه سراً برسل إلى روما، وعندما سمع الرهبان بهذا بعثوا بعدد من أفرادهم مع نائب راعيهم إلى روما أيضاً، خشية أن يطلب الرسل الملكيون أي شيء يضر بمكانة وحقوق كانتربري، وعلى الفور كتب الرسل الملكيون إلى الملك يقولون بأن رهبان كانتربري قد انتخبوا نائب راعيهم وبعثوه إلى روما، وانزعج الملك لدى سماعه هذا وذهب إلى كانتربري بعد عيد القديس أندرو، وسأل الرهبان عما إذا كانوا قد انتخبوا نائب راعيهم أو أي واحد آخر، فأصروا على أنهم لم يقوموا بأي انتخاب، وليبرهنوا عما قالوه وفعلوه، قاموا بناء على نصيحة

ومـوافقة جميع الكهنـة والرهبـان فانتخبـوا أسقف نوروك، ووسط الغنـاء، اقتادوه إلى داخل الكنيسـة، ووضعوه على كرسي رئيس الأساقفـة، وأخذوا قبلة السلام.

وبما أن الملك وافق على انتخـابهم، بعث الـرهبـان بـرسـل إلى رومـا للحصول على الطيلسـان، لكن الرهبـان الذين كانـوا قد ذهبـوا إلى روما، عـارضوا الانتخـاب، وذلك على الرغم من تحريم الـدير لهم الاقـدام على ذلك تحت طـائلـة عقـوبـة الحرمـان، ولقـد ادعـوا بأن أسقف نـوروك لم ينتخب من قبل الرهبـان، بل فرض من قبل الملك باستخـدام القوة، وأن الانتخاب بلا قيمة.

سنة ست ومائتين وألف

وبعـد وقت طـويل، قـام الـرهبـان الـذين نـالـوا التفـويض من ديـر كانتربري، بأن يقـوموا بانتخاب اعتماداً على السلطـة البابوية، قـاموا بعد تقـديـرات وافية، وبمـوافقـة من البـابـا، فانتخبـوا السيـد المبجل ستيفن لانغتون Langton كـاردينالاً، واحترامـاً من البـابا للملك بعث إليـه بـرسـائل طلب فيها مـوافقـة الملك، وكـان الذي فعلـه الملك، الاصغـاء لنصائح شريـرة، فرفض اعطاء الموافقة، وعلى كلّ حـال سأل فيما إذا كان جميع الـرهبـان قد وافقـوا على انتخـاب ستيفن لانغتـون، ورد الديـر أنهم سوف لن يتخلوا عنـه، وبناء عليه أقسم الملك الغاضـب أن مامن واحد منهم سوف يبقى في كنيسة كانتربري، ولاحتى في انكلترا.

- ٦٨٧ -

سنة سبع ومائتين وألف

[رسم ستيفن لانغتون رئيساً لأساقفة كانتربري في روما يوم ١٧- حزيران]، وبناء عليه تم طرد جميع الرهبان من كانتربري يوم ١٥ تموز، وجرى استقبالهم بتشريف في بلاد ماوراء البحار من قبل دير القديس بيرتن، وتباهى الملك بنصره الرائع، وعبثاً كتب رسائل إلى الراعي هناك أن يحاول طرد الرهبان.

ولد في هذه السنة هنري، أول مولود للملك جون من خلال الملكة ايزابيلا ابنة كونت أنغوليم، وكان هذا حدثاً حيوياً في أهميته، فالآن امتلك جون وريثاً ذكراً.

غادر انكلترا أسقف لندن، وأسقف إيلاي وأسقف هيرفورد، وأسقف تشستر ورئيس أساقفة يورك، الذي كان أخاً للملك، ومعهم عدد كبير آخر، وأغنياء وكذلك فقراء، لأنه لم يعد في مقدورهم تحمل طغيان الملك، ولم يبق ولا واحد في البلاد يستطيع أن يخالف ارادته، وكان أساقفة درم، ولنكولن وتشستر قد ماتوا، وفقط بقي أسقف ونكستر يتمتع بحظوة الملك، وكان أسقف نوروك في ايرلندا، وتحمل أسقفا روكستر وسالسبري كثيراً من الأذى، ثم غادرا إلى اسكوتلندا.

سنة ثمان ومائتين وألف

كان الملك نفسه هو السلطة الوحيدة في البلاد، وهو لم يخش لا الرب ولا الانسان، وكان البابا مزعوجاً نتيجة للمضايقات التي تعرضت لها

الكنيسة في كانتربري، وبعث برسائل أمر فيها الملك باستقبال رئيس أساقفة كنيسة كانتربري ورهبانها، وأن يعيد إليهم مقتنياتهم المصادرة، وراسل الملك روما، ووعدها بأنه سوف يقوم بالتعويض عن كلّ شيء، في سبيل الرب، والكنيسة المقدسة، والبابا، وعندما سمع البابا بأن الملك قد تاب فرح فرحاً عارماً، وبعث إليه برسائل غفران، وعندما عاد الرسل إلى انكلترا، بعث رئيس الأساقفة بأسقفين وراهبين، ليتسلموا مقتنيات كنيسة كانتربري، وعندما سمع الملك ماجلبه الرسل من روما، غضب كثيراً، وأقسم أنه لم يرسلهم لهذا الغرض، وجرى استدعاء المستشار الملكي الذي كتب الوعود الأصيلة وعليها خاتم الملك، ومع ذلك أنكر الملك أنه وافق عليها.

وبناء عليه انسحب الملك من المباحثات، وكذلك فعل الأساقفة وكلّ واحد آخر، وفي ٢٤آذار، جرى بناء على قرارات بابوية، تعليق الخدمات الدينية في جميع أنحاء انكلترا، وعمّ الأسف الكبير والقلق خلال البلاد، ولم يحتفل لاباالجمعة الحزينة ولا بأحد الفصح، لكن عمّ صمت لم يسمع بمثله، فرض على جميع رجال الدين والرهبان من قبل رجل علماني، ولم يعد من الممكن دفن الموتى من العاديين أو من رجال الدين في المقابر المكرسة، بل فقط في الأماكن الدنسة والملوثة.

وأمر الملك أيضاً بطرد العدد القليل من الرهبان الذين بقوا في كانتربري، وكان هؤلاء من العميان والمعوقين، وأن يُعدّ الرهبان بمثابة أعداء عامين، وهرب بعضهم من انكلترا، وسجن بعضهم، وجرى الحفاظ على بعضهم بالمال، وعانى آخرون من مصاعب جمّة، فقد قطعت أشجارهم، وجرى تغريم رجالهم وفرضت عليهم ضرائب ثقيلة، وعانت انكلترا كلها من هذه الأثقال، وأرغم الشعب على أن يدفع أولاً ربع أمواله، ثم الثلث، وبعد ذلك النصف، حتى أجور الكرادلة وكلّ ماكان لهم في انكلترا قد انتزع، وانتزع بنس بطرس الذي كانت الكنيسة

الرومانية تحصل عليه من أيام كنوت Cnut فقد آل هذا كله إلى الملك، وفرض بشكل خاص مكوس كبيرة في هذه المناسبة على الموانىء الخمسة التي كانت تدافع عن السواحل ضد الغزوات العدوانية، ولهذا الغرض شنق بعض سكانها، وقتل بعضهم الآخر صبراً، وسجن الكثير، وغلهم بالحديد، وبعد وقت طويل أطلق سراحهم مقابل عهد الولاء والمال، ولهذا غادر الفقراء والأغنياء انكلترا، وشكلوا أعداداً لاتحصى من الرجال والنساء، وكان سفرهم حجاً غير مشكور لتجنب الهمجية الهائلة للملك وليس عملاً دينياً أو للتقوى، وسجن جون حتى زوجته الملكة، ووضعها تحت الحراسة المشددة في قلعة كورف Corfe.

سنة تسع ومائتين وألف

لدى سماع البابا بهذه النوازل وماشابهها ومعه جماعة آباء الكنيسة الانكليزية، بعث إلى ملك انكلترا برسائل إعذار وانذار، حذره فيها بضرورة الابتعاد عن أعماله الشريرة والاقلاع عنها، وأن يعيد كنيسة كانتربري إلى وضعها الأصيل، وإلا من المؤكد أنه سوف يعاني من الحرمان الكنسي، الذي سيتلفظ به البابا شخصياً بشكل علني، ولن يقتصر الحرمان العلني للملك على انكلترا، ولكن سيشمل المناطق الأخرى أيضاً، واهتم جون —على كلّ حال— بالانذار البابوي قليلاً، وتجاهل التحذير.

وأرسل الملك رسائل إلى الملك وليم ملك اسكوتلندا، وكان رجلاً متميزاً بتقواه، وأمره إما أن يسلم إليه ثلاث قلاع على الحدود، أو ابنه بمثابة رهينة، وعندما لم يرغب الملك السكوتلندي في تلبية أوامره، أراد ملك انكلترا أن يستولي بالقوة العظيمة على مالم يستطع الحصول عليه

بالرجاء، وأن يعيد القلاع الثلاثة إلى مملكته.

وعندما أخذ ملك انكلترا الطريق نحو اسكوتلندا مع قوة كبيرة، بدأ جنده يتململون قائلين: «إلى أين نحن ذاهبون؟، ماذا نحن صانعون؟ إننا مثل الكفار، خوارج على شريعة الرب وعلى المسيحية، لماذا يتوجب علينا محاربة ملك اسكوتلندا المقدس؟ لأنه مؤكد أن الرب سوف يقاتل لصالحه وضدنا، وسيصنع المعجزات من أجله».

ولدى وصول هذا وغيره من حكايات جند الملك إليه، وخشية منه أن يحدث ويتخلى الجيش كله عنه ويتركه أثناء القتال لوحده، أمر غيوفري فتزبيتر، ورئيس الهيئة القضائية وإيرلات آخرين أن يبحثوا مسألة التصالح مع الكنيسة في كانتربري وفي انكلترا، وأن يستدعوا بسلام رئيس أساقفة كانتربري وأساقفة آخرين ورهبان إلى انكلترا، لأن البابا كان قد أمر هؤلاء الأساقفة بتلفظ قرار الحرمان على الملك.

وبناء عليه أرسل غيوفري فتزبيتر رسائل مستعجلة إلى أسقف لندن، وسأله القدوم مع أساقفته إلى انكلترا بالسرعة الممكنة، بقدر مايجب شرف الرب والكنيسة وسلام الملك والمملكة، لأن الملك قد أعطى السلطة الكاملة إلى الأساقفة لإقامة سلام مع كنيسة الرب.

وبينما كان الأساقفة يستعدون للعودة إلى انكلترا، والملك في طريقه إلى اسكوتلندا مع الجيش، أخذ ملك اسكوتلندا يشعر بالخشية على سلامة مملكته، وفضل كثيراً أن يمتلك السلام على اللجوء إلى السيف، وأن يزود شعبه بالحكمة بدلاً من الحديد، ولهذا بعث بابنتيه مع رسل أمناء إلى ملك انكلترا، وذلك من أجل أن تتزوج احداهن ابن الملك والأخرى واحداً من النبلاء الانكليز، كما أرسل ابنه، لكن ليس رهينة، بل ليقدم الولاء اللائق والتبعية إلى الملك بشأن القلاع المذكورة مع الأراضي التي بحوزته، وهكذا تم استرداد سلام مملكة اسكوتلندا، وعاد الجميع إلى

ديارهم.

ووصل الآن الأساقفة إلى دوفر يملكون كامل الصلاحية لإبرام سلام، ووافقوا بعد كثير من المباحثات على شكل من أشكال السلام الذي تمت كتابته والتوقيع عليه، وهكذا جرى تعليق قرار الحرمان المفروض على الملك وتأجيله لمدة خمسة أسابيع.

فاحتشد بناء على أمر من الملك جميع الرجال الأغنياء والفقراء والوسط في انكلترا ممن تجاوز سن الخامسة عشرة، احتشدوا في مالبرو، ليقسموا هناك يمين التبعية للملك ولابنه هنري البالغ من العمر ثلاث سنوات، على أنه وريثه. وعندما رأى الملك وسمع صيغة معاهدة السلام التي أبرمت بموافقة كثير من الناس، بعث برسل مع رسائل طالباً من رئيس أساقفة كانتربري الاجتماع به في دوفر للتباحث.

وبناء عليه، عبر رئيس الأساقفة البحر، وانتظر الملك حتى يصل إلى دوفر، وعندما سمع الملك بهذا جاء إلى قلعة تشلهام Chilham التي لم تكن بعيدة عن دوفر، وقد جاء مسرعاً جداً ومسلحاً تماماً.

وانتظر رئيس الأساقفة هناك، بينما انتظره رئيس الأساقفة في دوفر، وتأثر الملك ببعض الألسنة ذات التغرير الشريرة، فغير موقفه حول الاقتراح، وغادر فجأة، وقام رئيس الأساقفة بناء على نصيحة النبلاء، فعبر البحر، وعاد إلى فرنسا، وجرى حرمان ملك انكلترا من قبل عدد كبير من رجال الكنيسة، وذلك بناء على أوامر من البابا، وجرى حرمانه في فرنسا أيضاً.

وولد في هذه السنة رتشارد، وهو الابن الثاني للملك جون.

سنة عشر ومائتين وألف

استخرج الملك في خطة جديدة، مبالغ لم يسمع بها، من اليهود الانكليز، ذلك أنه أمر بشنق بعضهم، وبسمل عيون بعضهم الآخر.

تمتع اليهود لوقت طويل بحماية ملكية صعبة مقابل جعل قسم من أرباحهم متوفراً لخزينة الدولة، ودفعت محاولات جون الهمجية لاستخراج مبالغ كبيرة منهم، إلى مغادرتهم انكلترا كلياً.

ولم يوفر جون رجال الدين في بحثه عن المال، وعندما اجتمع رعاة ديرة الرهبانية السسترشيانية مع بعضهم سألهم أن يساعدوه ليس بصلواتهم بل بأموالهم، وعندما رفض طلبه بتواضع كامل، غادر الاجتماع مغضباً، وقاد الجيش والأسطول اللذين اعتقد الناس أنه أعدهما للذهاب إلى بواتو، لقد قادهما إلى ايرلندا، وبسرعة أخضعها بالقوة والخديعة، ومع أن الكثيرين عارضوه، لم يكن بإمكانهم مقاومته، وفرض هناك القوانين الانكليزية والعادات، وأمرهم بمراعاتهم والأخذ بهم، ثم عاد إلى انكلترا.

وأمل كثيرون أنه بسبب هذا النصر، سيعمل الملك على تدارك أفعاله السيئة التي اقترفها بحق كنيسة الرب، وأنه سيحاول اصلاح أخطائه، لكن غضباً جديداً صدر عنه خاصة نحو السسترشيان، الذين لم يستطع أن يستخرج منهم أي مال لابالقوة ولابالرجاء، ولهذا شردهم بين مختلف كنائس انكلترا، وبذلك أرغموا على التسول من أجل الحصول على الطعام، ولم يسمح حتى لرعاتهم بعبور البحر للالتحاق بمجامعهم، ولم يعط الإذن بالعبور حتى إلى راعي دير بوليو Beaulieu الذي كان قد أعطاه موقعاً جميلاً في «النيوفورست» ليبني عليه ديراً.

وأرسل جون رسائل مع رسل إلى رئيس أساقفة كانتربري، طالباً منه القدوم إلى انكلترا، حتى يمكنهما التباحث معاً حول السلام في دوفر، وعندما بات كلّ شيء جاهزاً للعبور، تلقى رئيس الأساقفة رسائل من بعض النبلاء الانكليز الذين كانوا مخلصين له،أخبروه فيها بألا ينخدع في قدومه إلى انكلترا، وأن يتجنب كمائن أعدّت له، وهكذا عاد إلى فرنسا، ذلك أن ملك انكلترا كان مليئاً بالاجرام إلى حدّ أنه نادراً ماكان صادقاً أو وفياً مع أي شيء كتبه أو قاله، فهو لم يحفظ لاوعوده ولاعهوده.

أرسل الملك جيشاً كبيراً إلى ويلز تحت قيادة أخيه وليم وإيرل تشستر، وقد عاث الجيش فساداً في محيط تلك البلاد، وقتل عدداً كبيراً من مختلف الناس، وقال كثير بأن نبوءة ميرلين قد تحققت في قوله: «سوف يهدم السادس أسوار ايرلندا» و«سوف تخضع بدايته لطبيعته المتقلبة»، وكان الملوك هم: وليم الأول، ووليم الثاني، وهنري الأول، وهنري الثاني، وبعد ذلك رتشارد، وكان السادس هو جون الذي استولى على ايرلندا، لكن كلّ بقية الأشياء كانت عبثية وبلا منفعة.

انتهى تاريخ جيرفاس بحوادث سنة ١٢١٠، وهي السنة التي توفي فيها، ويزودنا المؤرخ الواسع المعرفة، لكن المجهول، والمعروف باسم صاحب حوليات بارنول Barnwell بروايات ثمينة حول السنين الدرامية الأخيرة لحكم جون.

سنة إحدى عشرة ومائتين وألف

قاد ملك انكلترا جيشاً إلى ويلز ضد ان«ليويليين » Lewellyna لكنه عاد مسرعاً، لأنه الويلزيين، خافوا من زحفه، فانسحبوا مع أمتعتهم إلى الجبال، ولهذا عانى الجيش الانكليزي من المجاعة، لكنه

بعدما جمع كميات كبيرة من المؤن، كان الملك على الفور قادراً على القيام بحملة أخرى ضد ويلز، وفي هذه المرة مع قوة كبيرة، ووفرة من المؤن، وبذلك فرض على الويلزيين تقديم رهائن له، وبعدما نجح في تدبير أموره كما رغب، عاد مكللاً بالمجد.

ولم يكن الآن ولا واحد في ايرلندا واسكوتلندا،أو ويلز إلا وانحنى أمام إشارته ، وهي حالة ــ كما هو معلوم ــ ما من واحد من أجداده قد حققها ، وبدا الآن ناجحاً تماماً ، ويمتلك مستقبلاً واعداً جداً لخلفائه ، فيما عدا إنه أخفق بشكل مروع في أراضيه الأجنبية ، وكان خاضعاً لحكم الحرمان الكنسي .

وبعثت روما باثنين من الرسل البابويين لمصالحة الكنيسة الانكليزية ، لكنهما غادرا قبل أن يحققا أي سلام ، ولم يجلبا أية منفعة إلى التعساء .

وحدث أن عدداً كبيراً من الغزلان تجمعت مع بعضها في الغابة الانكليزية المعروفة باسم كانوك cannock ، وبعد كثير من الاضطرابات المعوية المزعجة، وكثير من الأنين رموا بأنفسهم إلى البحر عند مصب سيفرن severn ، ووجدوا بين الغزلان خشفاً له رأسين وثمانية أقدام.

وكان هناك خسوف تام للقمر يوم ١٨ ــ تشرين أول. وتوفي سمسون أسقف بري سينت أدموند، وروجر شحنه تشستر.

سنة اثنتي عشرة ومائتين وألف

انتهت قوة المغاربة التي تنامت بقوة وفخار كبير في الأندلس، لأن جيشهم قد سحق على أيدي الأمراء المسيحيين، بعدما تراجع في فوضى

وخوف، وعدل عن حملته الجريئة.

اجتمع الأطفال في جميع مدن فرنسا مع بعضهم ، وكان هذا أمراً مدهشاً لكل من رآهم ، وكانوا حيثما ذهبوا ، يجتمع الأطفال ، وكأنهم لا يستطيعون البقاء منفردين ، بل يتوجب عليهم التجمع على شكل كتل، وصحيح أن واحداً منهم لوحظ أنه كان في الخامسة عشرة من عمره، وهو من أهل باريس، لم يكن سواه ممن احتشد قد تجاوز الثانية عشرة، وعندما سئل الأطفال عما هم عازمون على فعله، أجابوا أنهم ذاهبون لحمل صليب المسيح.

انتهت حركة الأطفال الغريبة والعفوية بشكل مأساوي، فقد أسر الجيش من قبل تجار الرقيق وبيعوا إلى المصريين .

شوهد رزاز من الدم في كين caen في نورماندي يو م السبت ١٠ـ تموز، وشوهد في اليوم نفسه في فالي ثلاثة صلبان معاً في السماء وكأنهم يتبارزون.

وسمح في انكلترا كلها للمؤمنين الذين اقتربوا من نهايتهم بتناول قربان الموت المقدس لجسد مولانا، وكان هذا قد طولب به من قبل الكهنة في الديرة، الذين سمح لهم بالاحتفال بالقداس المقدس مرة واحدة في الاسبوع.

ووقعت في مدينة لندن نار غير اعتيادية ومرعبة على الضفة اليمنى لنهر التيمز، قرب كنيسة كهنة سيدتنا في ساوثورك Southwark وعندما عبر حشد كبير النهر، إما لإطفاء النار، أو للمشاهدة، فجأة وقعت النار في الجزء الشمالي، بسبب أن الريح الجنوبية كانت هابة، وهكذا حدثت الاعاقة باللهب المتصاعد للذين كانوا يعبرون الجسر عائدين، ثم إنه عندما تأثر الطرف الآخر من الجسر بالنار، باتوا محجوزين، وكأنهم بين

نارين، وتعرضـوا للضغط من كلّ طرف على حدة، حتى باتـوا لايتوقعون سوى الموت.

ثم جاءت بعض السفن إلى عـونهم، لكن أعداداً كبيرة انـدفعت إليها بحماقة مما سبب غرقها وهلاك كلّ انسان، وعدّ هذا فاجعة كبيرة من قبل الشعب، ولقـد قيل بأن ثـلاثـة آلاف قـد مـاتوا إمـا في النـار أو في غـرق السفن، وبـدا أن سوء الحظ الـذي كـان من المتوقع نـزولـه بانكلترا، قـد جلب دماراً أعظم على العاصمة.

وفي الـوقت نفسه حـدث شيء آخر جعل النـاس العقلاء منـدهشين، ففجأة وبـدون سبب محدد، انطلق بعض النـاس وكأنهم هجروا عقـولهم، وجالـوا من بلدة إلى بلدة في جميـع أنحاء انكلترا، ينفخون بـالأبواق التي يدعـوها الانكليـز النفر Hue وعندمـــا قيل إن هذا يمكن فقط أن يحدث لدى اللحـاق بالمجـرمين، وبما أنهم كانـوا لايلحقون بـأي انسان، توقعوا أنه سيكون هناك اضطراب أعظم في المستقبل القريب.

وكـانت السماء في الخريف، حتى ٨أيلـول، يـوم عيـد ميلاد مـولاتنـا، صافيـة، والطقس مشرقاً، ثم حـدث فجأة هطول مطـر مفاجئء ومتـزايد بدون تـوقف، وقد أحدث أضراراً كبيرة لحقت بالانكليـز، لأن ريح الشتاء كانت قوية إلى درجة أن حجارة الأبراج سقطت إلى الأرض.

وعندما وصل وليم ملك الاسكوتلنـديين إلى سن لم يعد قادراً فيها على تهدئة الأجزاء النـائية من مملكتـه، التي اضطربـت بقلاقل وحـرب أهلية، هرب هـو والملكة وابنهما الوحيد إلى الملـك الانكليزي ليطلبوا مساعـدته، وقدم الولاء إلى جـون، الذي رسمه فارسـاً، ثم ذهب مع جيش توغل إلى أقصى أطراف المملكة، وأسر كوثرد Cuthred الذي عرف باسم ماكوليم، وكـان قائد العصاة، وشنقه، وكان ماكـوليم من أفراد أسرة ملوك السكوتلنديين القدمـاء، وكان مثله مثل أباه الذي قاتل لأمـد طويل ضد

الملـوك الحاليين، أحيانـاً بشكل سري، وأحيـاناً بشكل علني، لكن دومـاً بشكل عدواني، بـالاعتماد على مساعدة السكوتلنـديين والايرلنديين، ولأن معظم الملـوك السكـوتلنديين الحاليين كـانـوا متأثريـن كثيراً بالفـرنسيين، وهكذا حـدث أن الفرنسيين فقط عوملـوا بصداقة واحترام، بعدمـا جرى اخضاع اللغة والثقافة السكوتلندية.

وتشجع الأمـراء الويلـزيين من قبل البـابا، الـذي حللهم من كلّ من الاتفاقية التي عقـدوها في السنة الفائتـة مع الملك الانكليزي، ومن الولاء والأيمان التي قطعـوهـا على أنفسهم، وشرعـوا يقاتلـون الملك الانكليـزي مقـابل التسـاهل في تطبيق الحرمـان الكنسي عليهم في بـلادهم كلهـا، وانفجر الملك جون بغضب عنيف، فشنق الرهـائن، وحشد جيشاً للزحف ضدهم من جميع أجـزاء المملكة، ثم إنه عنـدما حشد جيشـاً عظيماً لم ير مثله قط من قبل في أيامنا، قضى الرب بهزيمة قواته.

ثم اضطـرب قلب الملك جـون، لأنـه كما قيل بـات بلا سلطـة، فقـد سمعت أقاويل واشـاعات تفيد أن البارونـات الذين اجتمعوا معاً كـانوا يتآمرون ضده، وانتشرت في كثير من المنـاطق حكايات تحدثت عن رسائل حللت البارونات من طاعة جون والـولاء له، وقيل بوجوب انتخاب ملك آخـر بدلاً عنـه، وأن جـون ينبغي طرده مـن المملكة، وإذا مـاقبض الملك عليهم فلسوف يعانون من الموت أو من السجن مدى الحياة.

وبعـدمـا أعلن الملك عن عـودته، بـدأ يتصرف بشكل سيء، وكـان لايذهـب إلى مكان إلاّ وهو مسلـح أو وهو مرافـق بقوة كبيرة من الـرجال المسلحين، وإثـر إلقـائه القبض على بعض من بـدا أنه قـريب جـداً من الثوار، استـولى بسرعة على قـلاع الإيرلات والبارونـات، لذلك كـان هناك عدم استقرار لبعض الوقت.

ثم إن بعض نبـلاء البـلاد باتـوا يخشـون إمـا من غضب الملك أو من

وسواس الضمير، لـذلك غادروا انكلترا بشكل سري، فقد جـرى استقبال يوستاس دي فسكي Vesci في اسكوتلندا، وذهـــب روبرت فتز وولتر إلى فـرنسـا، وإثر ذلـك تمت مصادرة مقتنيـاتهم وأمـلاكهم، كما أن قلعـة روبـرت في لنـدن، المسماة قلعـة ريمـونـد أزيلت من الـوجـود مع قـلاع وحصـون أخرى، ثم بـدأ الملك يقيم تقديـراً أعظم لشعبه، وظلت البـلاد صامتة.

حتى في وسط الأجـواء العدوانيـة، حرك جـون عملاً عظيماً ولـه ذكرى طيبة، فعندمـا شرع المشرفون على الغابات في إيـذاء الناس في أجزاء كثيرة من انكلترا، بزيـادة الضرائب المفروضة، ورأى الملك التعـاسة التي لحقت بالناس، وبّخهم تماماً، وأرغم الموظفين المسـؤولين عن الغابات أن يقسموا أنهم لن يستخـرجـوا من الضرائب إلا المبالغ التـي اعتادوا على جمعهـا في أيام أبيه.

وكبح الذين فـرضوا ضرائب جـديدة، والذين ضـايقوا النـاس بفرض أتاوات جديدة بحجة حراسة الموانىء، وتعـرضوا للرحالة والتجار، وألغى الأتـاوات الجديـدة، حتى يقـال بأنـــه رحيم ومهتم بـالحفـاظ على شروط السـلام، واستعداداً منـه لإقامـة سلام مـع البابـا، انتزع من جميع رجـال الكنيسة التأكيـد بكل ماأخذه منهم، في كل منـاسبة من المناسبـات، منذ بداية حكمه، فبهـذه الوسيلة كانوا سيلطفون مطـالبهم كثيراً بشأن ماأخذ منهم، ولقد أكدوا المنح التي أعطوه إياهـا بصكوك مختومة، ومن ثم جرى ارسال الرسل إلى الحبر الأعظم، بكل طريقة كان من الممكن اتباعها.

ولقـد روي من قبل بعض النـاس، أنـه رأى رؤيا، أنـذر فيهـا بضرورة اصـلاح مسالكـه، وإلا فإنه كملك سيشعـر بـالانتقام الـرباني قبل نهايـة السنة.

وكـان هنـاك رجل يـدعى بيتر أوف ووكفيلـد Wakefield بسيطاً

ومتقشفاً يعيش على الخبز والماء، وكان قد ادعى للناس أن بإمكانه الاخبار عن المستقبل، وقد بشر بأن حكم جون لن يستمر أبعد من عيد الصعود المقبل، لأنه كشف له بأن الملك جون سوف يحكم لمدة أربع عشرة سنة، وأن هذه الأشياء التي بدأت خلال تلك الأربع عشرة سنة ستصل إلى نهاية سعيدة، وعندما سئل بيتر فيما إذا كان الملك سيموت أم سيطرد أو سيتنازل عن العرش، قيل بأنه رد عليهم بأنه لايعرف، والذي يعرفه فقط هو شيء واحد، هو أنه لن يحكم أية مدة أطول، لاهو ولاأي انسان من أتباعه لصالحه، مالم يقضي الرب بذلك، وهو لم يخف هذا عن الملك.

ونظر إليه في البداية على أنه أحمق، وسخر منه سجانوه على أنه مجنون، لأنه عندما كان يتجول في الساحات ينشر أفكاره، ألقي القبض عليه من قبل مؤيدي الملك، واحتفظ به في الاعتقال، وبدا أنه واثق من نفسه ومقدرها تقديراً عالياً، وبات يعتقد أن اسمه، الذي كان حتى وقت قصير غير معروف ومزدرى، أصبح الآن مشهوراً بإلقاء القبض عليه، وتكلم عن كلّ شيء، وأضيف كلّ يوم كلمات مزيفة من الناس العاديين إلى نبوءاته المزيفة، وعزي إليه كلّ يوم أقوالاً جديدة وأكاذيب قيل بأن بيتر هذا قد قالها في قلبه.

وكان هناك خسوف للقمر يوم عيد القديس مارتن، في ١١ تشرين الثاني، أثناء الهزيع الأول من الليل، وتوفي جون كومن Cumin أول رئيس أساقفة لدبلن، ونتيجة لهذا أصبحت المدينة من ممتلكات المملكة الانكليزية، ومات أيضاً موغر Mauger أسقف ووركستر، وغيوفري أخو الملك، الذي كان رئيس أساقفة يورك في المنفى.

- ٧٠٠ -

سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف

اشتكى الأساقفة الانكليز الذين كانوا في المنفى في فرنسا، إلى البابا، باسم الكنيسة الانكليزية، وتجاوباً من البابا مع شكواهم قرر الموافقة على وضع حد للشرور، فكتب إلى فيليب ملك فرنسا، وإلى أمراء تلك المناطق، أنه مالم يستسلم ملك انكلترا، عليهم القيام بتحرير انكلترا من حكمه بوساطة جيش قوي، ولم يعد هناك أدنى حاجة لرجاءات مطولة وإعذار وانذار، لأن الملك فيليب والأمراء كانوا ميالين لهذا النهج من العمل منذ زمن طويل، وذلك بسبب كراهيتهم لجون، وبسبب حبهم للمال وللذهب، لأن المتداول وقتذاك هو أن البلاد تلك زاخرة بالثروات.

وشجعوا بعضهم بعضاً، وأعدوا أنفسهم بكل شيء ضروري، ببناء بعض السفن وجمع أخرى من الشواطىء التي من حولهم، وقرروا أن الأسطول ينبغي أن يقلع معاً من ميناء واحد، وانتظر الملك الفرنسي شخصياً تجمع السفن في مكان ليس بعيداً عن البحر، وعندما جرى تقدير لحجم جيشه تبين أنه ضمّ مالايقل عن خمسة عشر ألف رجل، وتواردت السفن كلّ يوم على الموانىء والفرسان على القلاع.

وسمع ملك انكلترا بهذا، فحشد أسطولاً كبيراً من جميع موانىء انكلترا، وعين لسفنه رجالاً أشداء بارعين باستخدام السلاح، يمكنهم مع قوة كبيرة مقاومة هجوم العدو،وبذل جهوداً كبيرة لمقاومته، وإلحاق الضرر به وتعطيل خططه، وأقدم حتى على عرض تحرير الأقنان من أجل أن يتولوا الدفاع عن المملكة وحماية شخص الملك، وقد جاءوا لهذه الغاية مسلحين، واجتمع هناك حشد لم ير مثله في أيامنا، وقد وزعهم بين الموانىء، حيث الخوف من المخاطر وحيث السفن، واحتفظ بالجيش كله معه قرب دوفر، أما بقية الأسطول فانتشر قرب الشاطىء ليس بعيداً،

وأعدت الشواني مثل ذلك للحرب.

لكن قلب الشعب كان متذبذباً من السهل تحويله إلى هذا الجانب ثم نحو ذلك الجانب، وفي الوقت نفسه تبخرت شجاعة الرجال وتلاشت من الخوف ومن توقع وصول الأعداء الذين اعتقدوا أنهم سيصلون مع تيار المدّ المقبل، وأرعبت كلمات بيتر الكثيرين، لكن في يوم عيد الصعود، الذي قال بأنه سيكون يوماً حاسماً بالنسبة للملك بدأ العديد يراودهم الشك.

وفيما هم هكذا معلقين بسبب التوقعات، فجأة وصل جماعة من رسل الملك كان قد أرسلهم إلى روما في سنة خلت، جاءوا إليه مسرعين كثيراً، وأعلنوا أن قاصداً رسولياً بابوياً قد بعث معهم، وكان اسمه باندولف Pandulph وقد تطوع شخصياً للقيام بتنفيذ الأشياء التي أمر بها، وعهد إليه بها.

وكان الجانب الأعظم أهمية في أوامره: ينبغي أن يقسم قبل ١-حزيران أربعة من أكثر الرجال أهمية في المملكة، لصالح الملك ونيابة عنه بحضوره وبأمره، أنه إذا مابعث البابا رسالة اتفاق موقعة إلى الملك، يعد الملك بالشيء نفسه في رسائله المعتمدة، ويختم الاتفاقية مع رئيس الأساقفة والأساقفة. وإلا فإن وقت أقصى العقوبات وأشدها لم يأت بعد.

ماالحاجة إلى كثير من الكلمات؟ لقد ألهم الملك من قبل الذي بيده قلوب الملوك، وسعى لكسب السلام والحصول عليه، وكان الذين أقسموا على الاتفاقية المشار إليها والمكتوبة من قبل البابا هم:

رينو كونت أوف بولون، ووليم إيرل وارن Warenne ووليم إيرل فيرير Ferrers ووليم إيرل سالسبري، وهو أخو الملك، وعندما كمل هذا وعد الملك الشيء نفسه في رسائله وفقاً للشكل الذي أقسم عليه هؤلاء الأربعة لصالحه.

وبمبادرة من الملك أضاف مايلي: ينبغي خضوع مملكته كلها، أي انكلترا وايرلندا للرب، وللحواريين المقدسين بطرس وبولص، وبرغبة منه وعن طواعية ومن أجل أن يتمم الاتفاقية، يجب أن يدفع هو وورثته ألف مارك سنوياً إلى البابوات كرمز على خضوعهم، أي سبعمائة مارك عن انكلترا وثلاثمائة عن ايرلندا، وذلك دون أن يؤخذ بالحسبان دفع بنس بطرس، وأقسم بالوقت نفسه يمين ولاء وتبعية للبابا انوسنت الثالث ولخلفائه من بعده، وتم الإعلان عن هذا كله أمام الناس على شكل رسائل معتمدة، نشرت على صورة مواثيق.

ثم أكدت الحوليات أن خضوع جون للبابا كان خطوة حكيمة، فذلك جعل من الصعب محاربته خوفاً من ردات الفعل الانتقامية للبابا.

وأخذت الأمور تتحسن الآن بالنسبة لجون، فتحالف مع كونت فلاندرز ضد فيليب الثاني ملك فرنسا، وهزمت سفنه الأسطول الفرنسي في معركة بحرية، غير أنه بقي معوقاً في بولون خشية منه أن تصبح نبوءة ووكفيلد عن موته حقيقية.

ثم جاء يوم عيد الصعود، في ٢٣-أيار، الذي علقت عليه آمال كثيرة، وبأمر من الملك نصبت خيمته في المعسكر في بولون، وتركت مفتوحة تماماً، وجرى قداس عام لإمضاء نهار العيد على شكل وقور مع الملك، وكان نهاراً جميلاً، بالنسبة لبهجة الملك وسروره نفسه، مع الأساقفة والبارونات الذين اجتمعوا هناك، ومضى النهار بصحة تامة وسعادة، واعتقد الآن الذين وضعوا ثقتهم في بيتر أنه أحمق، وأنهم خدعوا بعقل ساذج، فقد توقع نهاية الملك يوم ٢٣-أيار، في حين أنه حسبما كشف له برؤياه، ينبغي أن تنتهي الأربع عشرة سنة لحكم الملك يوم ٢٧-أيار، وباتوا الآن أقل ميلاً لتصديقه.

وعندما حلّ يوم ٢٧-أيار، وهو اليوم الذي توج فيه الملك قبل أربع عشرة سنة، مرّ النهار بسلام، وبات الوقت متأخراً بالنسبة للذين صدقوا النبوءة حتى يتراجعوا عن اعتقادهم وتصديقهم الساذج، ولم يكن هؤلاء الناس من بين أوساط الناس العاديين، لكن كانوا من بين النبلاء وحكماء العالم وعقلائه.

واقترح على الملك في الوقت عينه، أن بيتر قد سبب انتشار الفوضى في البلاد، وعمم الرعب والقلق بين الناس، وأن هذا قد شجع أعداء الملك، لأن كلماته قد حملت إلى أقصى أجزاء فرنسا، وعدّت بمثابة تحريض على غزو انكلترا، وأغضب هذا كله الملك، لذلك أمر بوجوب شنق بيتر، وزاد على هذا بأن ابنه الذي كان مسجوناً معه ينبغي أيضاً أن يشنق، خشية إما انه كان شريكاً في نبوءات أبيه، أو انه هو الذي صنعها.

ثم عندما رأى الملك أن مملكته تعيش بسلام، وأن مامن شيء يخشى من جانب الفرنسيين، سعى إلى نقل كلّ تجهيزاته الحربية إلى بواتو، لكن كثيراً من النبلاء أصغوا بدون رغبة لاقتراحه، وكانوا غاضبين تجاه القيام بحملة طويلة الأمد، ليس من السهل عليهم تحملها لأن خزائن أموالهم كانت منهكة.

وهكذا أعيقت نوايا الملك، وبما أنه عدّ البارونات هم المحرضين على ذلك والمسببين، كان لابد وأن ينتقم فيما بعد، لولا أنه منع بتدخل الأساقفة ورئيس الأساقفة.

وعاد من القارة في شهر حزيران: ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، والأساقفة: وليم أوف لندن، ويوستاس أوف إيلاي، وجايل أوف هيرفورد، وجون أوف باث، وكانت عودتهم من منفاهم مع جميع رجال الدين والعلمانيين الذين كانوا بالمنفى معهم، وأعيدت جميع مقتنياتهم إلى كلّ واحد منهم كاملة، مع صداقة الملك، وبعد وقت قصير جرى تحليل

الملك من الحرمان بشكل علني وطقوسي مهيب من قبل رئيس أساقفة كانتربري تبعاً لعادات الكنيسة، وبعدما تلقى قبلة السلام من رئيس الأساقفة نفسه ومن بقية الأساقفة، اقتيد إلى داخل الكنيسة ليشارك بالقداس، ونفذ هذا وسط بهجة عظيمة من كلّ الناس.

وفي هذه الآونة ألهم الرب البابا انوسنت الثالث ليوجه حملة صليبية لمساعدة بلاد القدس ولتقدم الكنيسة الرومانية، ولأن بعضاً من متقدميه قدم في وقت مضى العون إلى الأراضي المقدسة، بدا غير لائق، أنه وهو الذي لم يكن أدنى قوة ولاحماساً في عمله، أن يظهر أقلّ فاعلية فيما تولاه، ولاحظ على كلّ حال أن الهرطقة في تلك الأيام كانت رافعة رأسها، وأن عدداً كبيراً من الأمراء كانوا محرومين كنسياً، وكثيراً من البلدان كانت أيضاً تحت عقوبة الحرمان الكنسي أيضاً، لذلك كان من الصعب عليه حشد حملة صليبية، وبما أن كثيراً من الأشياء الغريبة قد نمت في كرم الرب، توجب ضرورة بترها، لانقاذ الانجيل، ولهذا دعا البابا إلى مجمع عام ليتولى صياغة هذه المهمة، وبعث بكثير من الرجال ذوي الفعالية من عنده، ليبشروا بالكلمة المتعلقة بتحرير الأراضي المقدسة، وجميع أجزاء العالم الروماني، ولاكتشاف ماهي الأخطاء المتوجب تصحيحها.

غدت فرقة كارثر Carthar الهرطقية قوية جداً في لانغدوك Languedoc ودعا البابا انوسنت الثالث لحملة صليبية، استهدف أن تتوجه بشكل خاص ضد ريموند كونت طولوز، الذي اعتقد أنه مؤيد للهرطقة، وكان أعظم الشخصيات مكانة في القوات الصليبية هما: كلّ من سيمون دي مونتفورت والأمير لويس، ابن فيليب الثاني ملك فرنسا، واستمر الصراع العنيف والهمجي بشكل متقطع حتى سنة ١٢٢٩، وسبب دماراً مريعاً في لانغدوك، وجعل المنطقة تحت اشراف التاج الفرنسي.

ثم حدث أن جاء إلى انكلترا المبعوث البابوي نيكولاس أسقف توسكولوم Tusculum وكانت هناك عدة أسباب لبعثته هي: على الملك أن ينفذ بحضوره الوعد الذي قطعه للكنيسة الرومانية المقدسة، وتمّ تنفيذ ذلك. ثم في حوالي ٢٩-أيلول، أبرم الملك اتفاق تبعية مع نيكولاس بحكم كونه الممثل للبابا، وأعطاه أيضاً صكاً مختوماً بالذهب، وألف مارك، وهو المبلغ المقرر دفعه سنوياً، وجاء دفعه بمثابة دليل على طاعته، ثم استقبله الملك وأصغى إليه بشكل مفتوح.

وعندما صنع هذا كان جون قد بدأ بإزالة العادات الشريرة من مملكته، وذلك بناء على نصيحة من الأساقفة وتحريض، فقد منع تحصيل المال بالعنف، وألغى المكوس المؤذية التي فرضها عماله وموظفوه، وكان هذا بسبب أن العمال والموظفين الأدنى، كانوا عندما يجمعون الضريبة السنوية، التي يحق لهم وحدهم جمعها، كانوا يستخرجون المزيد من المال من فقراء المقاطعات، وقد عزل الذين مارسوا الشره، وعيّن آخرين، ممن كانوا على استعداد للأخذ بنصائح الرجال العقلاء، وممن كانوا سيعملون لصالح أبناء بلدهم من الريفيين بسلام وهدوء وليس بالغش بالمال، وزاد على هذا أنه أقام مساءلة دقيقة حول هذه المسألة، حتى يعرف كم من المال المستخرج من قبل وزرائه قد تسلمه هو بالفعل، لكن هذا لم يكمل قط لأن الرعب والاضطراب تدخلا، عندما جرى استدعاء جميع الرجال إلى حمل السلاح بسبب التعرض للغزو الفرنسي.

وخلع النائب البابوي راعي دير وستمنستر، وراعي دير ايفشام.

وكانت هناك اجتماعات متعددة بين الملك والأساقفة بشأن عقد مجمع للكنيسة، لكن عندما لم يكن هذا من الممكن عقده، استمر الحرمان إلى السنة التالية. وجرى استدعاء ملك أراغون من قبل بعض رجاله لتقديم العون لهم ضد سيمون دي مونتفورت، قاهر الهراطقة، فقد قتل بالمعركة من قبل الصليبيين مع كثير من رجاله، وعدد كبير من

الهراطقة غير المشهورين. ومات غيوفري فتزبيتر، رئيس هيئة العدالة في انكلترا.

سنة أربع عشرة ومائتين وألف

عبر ملك الانكليز إلى بواتو مع جيشه في بداية شباط، ومكث هناك حتى أيلول، واسترد جزءاً واسعاً من الأراضي التي اغتصبها فيليب، ملك فرنسا، في وقت مبكر، وتصالح مع عدد كبير من أعيان الرجال، وقاد هؤلاء معه في الجيش.

وطلب فيراند، كونت فلاندرز، بعدما طُرد من مقاطعته بوساطة الملك فيليب، ملك فرنسا، العون من أوتو الرابع، امبراطور الألمان، ومن الملك جون، وأبرم معاهدة معهما، ونظراً لوثوقه بعونهما عاد إلى فلاندرز، وهو ينوي استرداد كلّ شيء من أيدي الملك الفرنسي، بوساطة قوات هذين الرجلين اللامعين، وكذلك خاصة مساعدة وليم، ايرل أوف سالسبري، الذي هو أخو الملك، ورينو كونت بولون، فقد جاء هذان الرجلان معاً لمساعدة فيراند مع جيش كبير.

وعندما بعث الملك الفرنسي ابنه لويس ضد فلاندرز، التي احتشدت فيها أعداد كبيرة من البشر مع بعضها، ثم إنه بعدما طوقت حدود فلاندرز، ونظمت العساكر وعبئت، وقعت المعركة عند جسر بوفين Bouvines بين مورتين وتورناي، يوم الأحد في ٢٧-حزيران، وبعد مقتل أعداد كبيرة في الصراع، أمسك الملك الفرنسي براية النصر، ووقع بالأسر المحاربين المتميزين التالين: بلوتو Pluto وفيراند كونت فلاندرز، ووليم أوف سالسبري، ورينو أوف بولون، وكيل أوتو، ومائة وخمسين من الفرسان الآخرين ذوي المكانة الرفيعة.

وبعد هـذا حشد الملك فيليب جيشـاً ضد ملك انكلترا، لكن بعـدما تدخل القـاصد الـرسولي، عقـدت هدنـة بينهما لمدة خمس سنوات، وذلك لصـالح الذين اقترحـوا القيام بـالرحلـة إلى القدس، وعنـدها عـاد الملك فيليب إلى فرنسا، ورجع الملك جون إلى انكلترا.

وعامل في الوقت نفسه أسقف توسكولوم Tusculum الذي عمل كقـاصد رسـولي بين الشعب الانكليـزي، الملك بمنتهى اللطف، وعـالج شـؤون الكنيسة بأخـلاق رضية، ومن أجل تأخير إقـامة سـلام بين الملك والأسـاقفـة، تـوصل إلى اتفـاقيـة مع وزراء الملك فيما يتعلق بـالكـراسي الكنسيـة الشاغـرة والديـرة، وتلقى سفر اء البـابويـة الذين انتخبـوا لهذه الكراسي رسـائل تتعلق بالـدين المدان به الملك للكنـائس كتعويض على نفيهم، أي أن عليـه أن يدفع تعـويضات قليلـة كلّ وقت في أثناء السنـة المقبلة، وإذا ماتعهد الملك القيـام بهذا العمل، عندها ينبغي رفع الحرمان عن انكلترا، وكان هذا مـاجرى تنفيذه، ورفع الحرمان بوسـاطة مجمع عقد في لندن، وذلك بعدما قدم الملك تـرضيات حول هذه المسألة في ٢-تموز، وكان ذلك بعـد ست سنوات، وثـلاثة أشهر، وستـة عشر يومـاً من تاريخ فرض الحرمان.

وإثر عـودة الملك من بواتـو مباشرة، جـرى استدعـاء نيكولاس أسقف تـوسكولـوم من مهمتـه كقـاصد رسـولي، من قبل البـابـا، حيث قيل بأن المهمة ينبغي أن تطبـق في انكلترا بنشاط أقل، ثم عندمـا لاحظ الملك أن الذي اعتمد عليه قد سحب، لذلك كـان أكثر سلمية وتصالحاً في تعامله مع الأساقفة، وبعدمـا أرضاهم مباشرة فيما يتعلق بجميع الأذى والأضرار، أعطـاهم بمثابـة تعـويضـات كثيراً من التكريمات والتشريفـات والمزارع، وأزعن في هذه الآونة لتسليم أسقفية روكستر إلى رئيس أسـاقفة كانتربري، ورعويـة دير ثـورني إلى أسقف إيلاي، أي أن تقـول أرضهم، مادام الملك يملك الحق في فعل ذلك.

وأمسكت أسماك ذات مظهر غير طبيعي في انكلترا، وبدت وكأن على رؤوسها خوذ وتحمل ترسة، وبدت إلى حد بعيد وكأنها جيش من الفرسان، مع أنهم كانوا أكثر عدداً بكثير.

ومات غلبرت أسقف روكستر، وكذلك جون أسقف نوروك، وهو عائد من روما حيث كان يتباحث من أجل الملك، ومات أيضاً وليم ملك السكوتلنديين.

وفي حوالي ٨-أيلول، يوم عيد ميلاد العذراء مريم المباركة، ثار البحر وتدفقت مياهه بفيضان غزا الشاطىء وسبب كثيراً من الأضرار في انكلترا.

وقام نزاع بين الملك جون وبين بعض نبلائه فيما يتعلق بتعويض البدلية العسكرية التي طلبها منهم، والتي رفضوا دفعها، كما ورفضوا اتباعه إلى بواتو، ورفض بعض البارونات الشماليين —وهم النبلاء الذين أعاقوا في سنة منصرمة عبور الملك إلى بواتو— قائلين إنه لايتوجب عليهم اتباع الملك إلى خارج البلاد في مقابل الأراضي التي في حوزتهم منه في داخل انكلترا، كما لاينبغي عليهم مساعدته في البدلية العسكرية، ومن جانب آخر طلب الملك المساعدة التي أعطيت إلى التاج في أيام أبيه وأخيه، والتي كان من الممكن استمرار دفعها لولا تدخل القاصد الرسولي، وأحضر البارونات ميثاقاً بمنحهم بعض الحريات من قبل هنري الأول، وطالبوا بتأكيدها لهم من قبل الملك.

سنة خمس عشرة ومائتين وألف

اجتمع في لندن البارونات الذين طالبوا بميثاق الحريات مع شركائهم، وقيل كان من ضمنهم بعض الأساقفة، وقابلوا الملك.

وعندما طلب الملك إزالة العدوانية في النزاع الجديد لم يصغ إليه بأدب ولطف، لسبب بين أسباب أخرى: مرّ زمن طويل حيث امتلك نوايا مختلفة في قلبه، وبعدما تدخل بعض الأفراد، حدد موعد للملك ليعطي جواباً نهائياً، وكان ذلك ٢٦نيسان، وأكد الملك للنبلاء كتابة انه إذا لم يعط جوابه في ذلك اليوم، عندها يمكنهم مغادرته واحداً واحداً والعودة إلى أراضيهم، وعندما نشر هذا الميثاق، وافق كلّ انسان على ما اقترح فيه، وكان الجميع على قلب واحد وإرادة واحدة: أي أنهم مكرسون للدفاع عن بيت السيد، ويقفون مع حرية الكنيسة والمملكة.

وقرر الملك من جانبه، انه طالما هذا قد صنع، على كلّ الناس في انكلترا كلها أن يقسموا له انهم سيقفون معه ضد جميع الناس وضد هذا الميثاق، وذلك بالاضافة لليمين المعتاد، وعندما لم يصغ إليه عن طواعية، وبدأت التعليلات والاعتذارات تعمل، وتوقف عما بدأ به، ولكي لايدع وقتاً لتحريك ثورة بين الشعب، أرسل حينها رسلاً إلى البابا يشكون إليه أن الشعب استعد للقيام ضده، وذلك على الرغم من أيمانهم بالتبعية له، وعرف من خلال بعض رفاق الرسل أن هذا كان قد تقرر قبل أيام كثيرة، ومن جانبهم تشكى البارونات ضد مكوسه غير العادلة، وضد طغيانه.

ومات في تلك الآونة يوستاس أسقف إيلاي، وكان رجلاً صاحب سلطان عظيم، وعلى نصيحته اعتمد —كما قيل— شطر أساسي من هذه المباحثات.

وحمل الملك الصليب في لندن من وليم أسقف لندن، ومع الملك وبعده فعل الشيء نفسه العديد من أتباعه، وبعضهم فعل ذلك بناء على تحريضه، ولقد أعطاهم صليباً أبيض، حسبما جرت العادة في أيام أبيه وأخيه، لأن هناك عادة قديمة بأن الانكليز كانوا يتميزون بالصلبان البيضاء، وتميز الفرنسيون بالحمراء، وفسر بعض البارونات عمله بشكل مفاجيء، وقالوا إنه لم يفعل هذا بدافع التقوى ولالحبه للمسيح، ولكن

من أجل أن يحرمهم من اتخاذ قرار، وسمعوا بأنه استدعى أجانب لمساعدته، فاجتمعوا مع بعضهم ولم ينتظروا حتى يوم ٢٦نيسان، الذي جرى تحديده.

وعندما ردّ الملك بقسوة على البارونات، بوساطة رسلّه، عزموا على عدم التعامل معه بالسبل السلمية مرة ثانية، وعاد كلّ منهم مسرعاً إلى أراضيه من أجل تحصين قلاعه ولطلب العون، وبدأوا يعدون الخيول والسلاح.

وبناء عليه اجتمعوا مع قوة عظيمة في أسبوع الفصح، وذلك توافقاً مع الاتفاقية التي عقدوها، وجاء معظمهم من المناطق الشمالية، ولهذا عرفوا باسم الشماليين، ثم زحفوا إلى نورثأمبتون، دون القيام بأي عمل عدواني، وذلك باستثناء الظهور بالاستعداد للحرب، وانضم إليهم هناك غايل Giles أسقف هيرفورد، وغيوفري دي ماندفيل، وروبرت فتز وولتر، مع آخرين كثر من الذين كان لديهم بشكل رئيسي شيء ماضد الملك.

وحاول بالوقت نفسه الملك أن يستردهم إلى صفه من خلال كثير من الرسل، وكان هناك نقاش كثير فيما بينهم، وشغل رئيس الأساقفة والأساقفة وبارونات آخرين دور الوساطة، وكان الملك نفسه مقيماً قرب اكسفورد.

وفي نهاية هذا المؤتمر، الذي انعقد ليس بعيداً عن بريكلي Brack-ley أرسل البارونات رسائل تحدي للملك، ثم غادروا ومعهم رجالهم عائدين إلى نورثأمبتون، وفيما أعلامهم ماضية أمامهم أعدوا أنفسهم للقتال، وبعدما أغلقوا الأبواب ومركزوا الحراس عند الأسوار بدأوا بالهجوم على الحصن الذي كان في المدينة، لكنهم أعيقوا لأنه لم يكن لديهم آلات ومعدات حصار، ولهذا أرسلوا إلى مؤيديهم في كلّ من

القرب والبعد بوجوب حضورهم وجلب قواتهم معهم.

وجلبوا إلى صفوفهم عدداً كبيراً، خاصة من الشباب، أي من أبناء وأحفاد البارونات الذين رغبوا في صنع اسم لهم في الحرب، وانقسمت البيوتات على بعضها عدوانياً، فقد وقف الآباء والشيوخ إلى جانب الملك، في حين وقف الأبناء والشبان مع خصومه، ونعرف حتى بعضهم ممن عبر إلى الجانب الآخر حباً لأبنائهم، وكانت هناك الجماعة التي لم تنضم إلى الثوار في البداية، لكنها فعلت ذلك فيما بعد، إما لأنها كانت صديقة للسعد، أو لأنها كانت ممن يحب الأشياء الجديدة، ولقد قيل بأن كلّ من الاسكندر ملك الاسكوتلنديين وللويلن Llewellyn أمير شمالي ويلز، كانا على عهد معهم.

ودعا في هذه الأيام رئيس أساقفة كانتربري إلى مجمع ديني اقليمي يعقد في اكسفورد، وبعدما وصل بعض الأساقفة تأثرت المداولات الجادة باضطرابات المملكة، لذلك غادروا.

وعندما اجتمع الذين تقاطروا في قوة شديدة، اتهموا الملك بأشياء كثيرة، وبعدما اتهموه أدانوه، وقالوا بأنهم لايجوز أن يبقوه ملكاً، وجمعت أصواتهم قوة، وقامت مؤامرة قوية ضده، وجرى تعيين قادة للجيش، أطلق عليهم اسم قادة (مارشالات) جيش الرب، وبعد مضي وقت قصير زحف حوالي الخمسمائة فارس نحو لندن، وكان النهار الأحد، والناس في الكنائس، وفي تلك الأثناء، تقدم بعضهم أمام البقية مع بعض الشركاء من المدينة، وزحفوا خلسة نحو الأسوار، وتسلقوها، ثم فتحوا الباب الأول فالباب الثاني، وسمحوا لرجالهم بالدخول، وقد قيل بأن رجال الملك كانوا وقتذاك مع الجزء الأكبر من سكان المدينة جاهلين بما كان يحدث.

وهل هناك المزيد لقوله؟

وأسروا الذين قاوموهم، وانضم إليهم البقية، فغدت المدينة في أيديهم، وأقاموا دوريات الحراسة فوق الأسوار.

واحتشد في هذا الوقت عدد من الناس، تقودهم الروح نفسها، واجتمعوا مع بعضهم في دوفن، وقاموا أولاً باحتلال المنطقة الخارجية للمدينة ثم اختبأوا إثر هذا في الغابة، لكن عندما علموا أن بعض الناس قد استولوا على عاصمة المملكة، خرجوا من الغابة واندفعوا بقوة لاتقاوم، فاستولوا على بيوت الملك، وبعدما نهبوها وأفسدوها مع حدائقه، انفرجت أسارير الكثير من القلوب، فقتلوا في كلّ مكان واقترفوا أعمال نهب وسلب، وانفجر الاضطراب في نورثأمبتون، وتم قتل عدد كبير من رجال الملك الذين كانوا متمركزين هناك على أيدي سكان البلدة، وبعد عدة أيام أكلت النيران الشطر الأكبر من البلدة.

ثم جمع الملك المساعدات حتى يكون قادراً على الحفاظ على ذاته بسلام، وحصن حصونه وقلاعه، وشحنها بالرجال والمؤن، ثم أرسل بعض الرسل سراً إلى الأجزاء الأجنبية لطلب العون من الأمم الأخرى، وأرسل رسلاً آخرين إلى البابا، يشكو بحرقة هؤلاء الذين قاتلوا ضده، ولم يثق البارونات برجال الملك الذين كانوا في لندن، والذين كانوا مايزالون يفكرون بالأمر، ولم يتخذوا قرارهم، لهذا بدأ البارونات بإنشاء آلات الحصار والشروع بحصار الحصن الذي يعرف بقلعة (برج) لندن، وسمع بهذا الذين كانوا مايزالون في الأجزاء الشمالية من البلاد، فشرعوا بالقوة والإطراء يعملون في سبيل الاستيلاء على المواقع هناك، وبعدما حشدوا جيشاً قوياً، احتلوا لنكولن في أسبوع أحد الشعانين، واستعدوا حتى لحصار القلعة، التي ظلت صامدة.

وبعدما رأى الملك أنهم قد حشدوا قواهم، بدأ من خلال بعض الناس، وخاصة من خلال رئيس الأساقفة، الذي احترمه كثيراً، يسألهم إقامة سلام، ووعدهم بصدق، أنه ليس هناك من شيء سوف لن يفعله

لصالحهم، مقابل الحصول على السلام، واتفقوا على مكان يمكن للفرقاء الاجتماع به بشكل موائم، وبعد كثير من المداولات اتفقوا على عقد سلام مع الملك، وقد أعطاهم كلّ ما أرادوه وأكد هذا في ميثاقه.

كان هذا ميثاق مرسوم اصلاحات، وقد قصد منه، على الرغم من الايماءات العابرة إلى الطبقات الدنيا، حماية البارونات ضد الطغيان الجشع للملك جون.

واستقبل الذين جاءوا هناك بقبلة سلام، وجددوا يمين التبعية، وأكلوا وشربوا معاً، وحُدد يوم لاتمام السلام، عندما يتوصلون نهائياً ويحققون ماعقدوا عزمهم عليه، وأعاد الملك بشكل مرضٍ العدل إلى كلّ مكان، ورفع الحصارات التي كان قد بدأها، وسلم وتخلى عن البيوت والقلاع التي استحوذ عليها بيديه، أو التي كان أخوه رتشارد قد أخذها وهي قلاع:

ماونتسورل Mountsorrel وروكنغهام Rockingham وكولشستر Colchester وعدد كبير آخر، وجرى على الفور الإعلان عن سلام عام، وتوقف الذين كانوا في لندن، والذين كانوا في لنكولن عن الأعمال العدوانية.

وسويت المسائل واستقرت الأمور، لكن ياللأسف انبعثت مشكلة جديدة أسوأ من الأولى، وسببها العدو الذي يكره السلام ويصنع الاضطرابات، ففي أثناء المحادثات ذهب بعض البارونات من وراء الهمبر Humber وتخلوا عن التسوية، وجددوا الأعمال العدوانية، بحجة أنهم لم يكونوا حضوراً، وخلقوا فوضى، وبدا أنهم يستهدفون الآن ايجاد الفرصة لإزالة الصداقة التي دشنت، لأن الملك نفسه لم يثق بهم وهم رفضوا الاقتراب منه .

وجرى استقبال بعض الثوار الآخرين من قبل اللندنيين، وبدأوا بترميم

الدفاعات الفئوية، وحصن آخرون القلاع التي كان الملك للتو قد تخلى عنها، أو التي كانت بحوزتهم وكأنها ملك وراثي لهم منذ زمن طويل، وكان هناك آخرون قاموا حتى ببناء حصون جديدة.

وجرى بالوقت نفسه تداول نسخ من الميثاق في البلدات والقرى، وكلّ من رآه وافق عليه، وكان الملك هو الذي أمر بذلك.

ثم أرسل الملك رسله إلى المقاطعات لينبه العمال بالعمل على حفظ السلام، لأن عملهم هو حفظ السلام في المقاطعات، ومراعاة الشؤون الملكية، لكن عندما وصل الرسل إلى الأجزاء التي كان فيها النبلاء المذكورين أقوياء، بعضهم ألقي القبض عليه، وطرد بعضهم الآخر من دون أذى.

وعندما سمع الملك بهذا توجس أن اليمين الذي توجبت مراعاته لها قصد به جانبه، لأن الميثاق قال ينبغي ارغام الملك على مراعاة شروطه، وبسرعة بعث برسل آخرين إلى البلدان الأجنبية، وأرسل مستشاره رتشارد مارش إلى البابا، الذي عقد اجتماعاً دائماً للكرادلة للعناية بمصالحه.

وعرض جون قضيته لأن مجمع اللاتيران كان وشيك الانعقاد، ولأنه عرف أن بعض النبلاء كانوا يتآمرون من أجل خلعه، وحاول بوعود كبيرة أن يربح إلى جانبه الملك الفرنسي، لكنه أحبط، لأن الآخرين الذين أعطاهم الملك الفرنسي وعوداً سرية ومساعدات كانوا قد سبقوه، ولأنه كانت هناك عداوة بينه وبين الملك الانكليزي منذ وقت طويل مضى، باستثناء الأوقات التي كانت تتمتع بالهدوء بسبب الهدن.

ومن جديد كان هناك الكثير من النهب وأعمال السلب، ومكث الملك في أماكن حصينة، بينما تجول البارونات بكل حرية ذهاباً وإياباً عبر المنطقة، لكن حتى الآن لم يقتربوا من الشعب، ولم يتعرضوا له لأنهم رأوا أن وقت الحصاد قد اقترب، وركزوا على نهب جميع المزارع الملكية

بقدر الإمكان، وكذلك البيوت التي كانت بالشمال، وأفرغوا الغابات ببيع الأحراش وقتل أعداد هائلة من الحيوانات البرية.

وعندما رأى رئيس الأساقفة وجميع الأساقفة أن البلاد آيلة للدمار، ذكّروا الآن الملك، وفي آن آخر البارونات ،لإقامة السلام، ولدى رؤيتهم أن كلّ من الثوار والملك قد أعدوا أنفسهم للسلام، وباتوا جاهزين لذلك، تقرر أن يجتمع الملك ومعه رجاله في اكسفورد، والبارونات ورجالهم في بريكلي، وتحدد موعد ذلك يوم ١٥-آب، وهو عيد رفع مريم العذراء المباركة إلى السماء، وهناك يسير الوسطاء فيما بينهم، وعندما يكملون عملهم سيكون بإمكانهم إماتة خلافاتهم، ودفن عداواتهم.

واجتمع في اليوم المحدد جميع الأساقفة والبارونات قرب اكسفورد، واصطفوا على شكل صفوف معركة، وأرسل الملك معاذير بوساطة رجاله قال فيها إنه عندما جاء إليهم، جاء لالرفض أي شيء، لكن بعد السلام الأول لحق به إيذاء عظيم، وأضرار بالغة، ينبغي تصحيحها، وهاهم جاءوا في هذا اليوم، عندما كان من المؤمل القدرة على بناء سلام، مسلحين، ومعهم حشد هائل، لذلك بات غير أمين أو ينصح بالسماح بالوصول إلى الملك.

ثم جرى إعلان قرار الوصاية البابوية، وقد أمرت رئيس الأساقفة وأساقفته أنه يتوجب عليهم حرمان المتمردين على ملك انكلترا وعلى أعدائه، وكذلك عليهم القدوم لحضور مجمع اللاتيران، تحت طائلة الحرمان المؤقت، وجرى تفويض أسقف ونشستر، وراعي دير ردنغ، وباندولف نائب رئيس الشمامسة في الكنيسة الرومانية، الذي كان صديق البابا، بتولي أمر تنفيذ قرار الوصاية هذا، وكان هذا هو راندولف نفسه، الذي تولى قبل عامين مصالحة الملك مع الكنيسة الرومانية، وكان أيضاً قد بذل جهوداً عظيمة على صعيد الجانبين حتى يجدد دفع بنس بطرس، ولكي يعيد الملك إلى الكنيسة الرومانية، وبهذا وجد مكاناً بين

الانكليز وجرى انتخابه أسقفاً لنوروك.

ونظراً لانتشار أقاويل بوجوب تخلي الملك عن المملكة، لأنه بدا أنه لاتتوفر ثقة بحكمه، فإن المناقشات بين الأساقفة والبارونات استمرت لمدة ثلاثة أيام، وذلك بهدف تعليق قرار الخلع على الأقل، وجاء الأساقفة بالوقت نفسه إلى الملك وطلبوا منه حضور مفاوضات استسلام في لندن أو في بلدة تدعى ستين Staines واتفقوا أنهم سوف يجتمعون هناك.

وعندها عاد البارونات إلى لندن حيث عاش بعض شركائهم، وعلى كلّ حال لحق الأساقفة بالملك بالسرعة القصوى إلى بورتماوث، وبصعوبة بالغة كانوا قادرين على ارجاعه من السفينة التي ركبها، ولم يتمكنوا من تحقيق أي شيء تجاوز أن عليه ارسال بعض رجاله لمرافقة الأساقفة، لأن الرجال احتجوا أثناء الاستماع لشهادات الأساقفة وأتباعهم، وقالوا إنهم لن يبقوا مع الملك حتى يجري إبرام اتفاق للسلام.

ولهذا اجتمع الأساقفة والبارونات معاً كأنهم رجل واحد في ستين، يوم ٢٨-آب، وبعد كثير من المداولات، وبما أن الخطر هدّد الأساقفة صدر قرار الحكم ضد مثيري القلاقل للملك وللمملكة، وذلك تماشياً مع قرار الوصاية البابوية، ومع ذلك قال كثيرون: كان من المتوجب اصدار قرار الحكم ضد الملك نفسه، لأنه هو الذي سبب القلاقل للمملكة، ولذلك ينبغي طرده.

ثم عاد البارونات إلى لندن، ليس بلا فخار، واقتسموا فيما بينهم أنفسهم ذلك الجزء من المملكة الذي بدا الآن أنه تحت سلطانهم، فقد أعطيت اسكس إلى غيوفري دي ماندفيل، ونورثأمبتون إلى روبرت فتز وولتر، ونورفولك وسفولك إلى روجر دي كريسي Crescy وكونتيتي: كمبردج وهنتنغدون إلى ساهر Saher إيرل أوف وينشستر، وكونتية لنكولن إلى وليم دي ألبيني، وكونتيتي: يورك ونوتنغهام إلى جون مفوض

الجيش في تشستر، ونورثأمبرلاند Northumberland إلى روبرت دي روس Ros وتوجب أن يظهر كلّ واحد منهم نفسه قادراً على توفير العدل والسلام للمنطقة التي عهد بأمر العناية بها إليه.

وأعلن بعد عدة أيام بأن الملك مع الأجانب الكثيرين الذين قدموا لمساعدته، قد جمعوا جيشاً قرب دوفر، حيث بدا له من الموائم أن ينتظر هناك الآخرين الذين أمل بقدومهم.

وبما أن البارونات خلعوه ورفضوه، بدأوا الآن يبحثون مسألة انتخاب ملك جديد، ولما كان الصحيح المتوجب إتمام هذا بموافقة المملكة كلها، دعوا إلى اجتماع حاسم، وادعوا وجود خطر حقيقي، ورددوا تلاوة الأيمان التي أقسمت، ورسموا بوجوب اجتماع جميع النبلاء في موعد محدد ومكان عيّن من قبل، وحدث إثر هذا، أن البارونات الذين لم يعطوا موافقتهم عند البداية، قاموا الآن بعد كثير من التأخير والمباحثات، بالرد بأنهم لم يوافقوا على خلع الملك وطرده، بل تعهدوا أنفسهم أنهم سوف يكونوا جاهزين لخدمته في السلم، ثم انقسم البارونات إلى معسكرين، وتضاعفت الشرور في البلاد.

ومع أن الثوار كانوا كثرة كثيرة، غير أنهم افتقروا إلى الثقة، ولذلك التفتوا نحو الملك فيليب ملك فرنسا، وانتخبوا أكبر أولاده لويس ملكاً عليهم، ورجوه القدوم إلى انكلترا مع قوة كبيرة، بغية تحريرهم من يد الطاغية الذي يتولى حكمهم الآن، وبعدما أكملوا هذه الاتفاقية من خلال وسطاء، ترددوا فيما بينهم، قاموا بحصار قلعة نورثأمبتون بمساعدة ضباط فرنسيين بارعين في انشاء آلات الحصار، وعندما اكتمل هذا العمل، حاصروا الحصن في اكسفورد.

وبدأ الملك جون، الذي أقام قرب دوفر لبضعة أيام، الآن برفع رأسه، وإلى هناك وصلت إليه جميع القوات القادرة التي كان قد وعد بها عندما

طلب العـون، فقد جـاء إليه النـاس بأعداد كبيرة من بـواتو، وغسكـوني، وبـرابانكـون وفلانـدرز، مع أن عدداً كبيراً منهم عـانى من ريح عاصفـة أثناء العبور، وغرقت إحدى السفن التي كانت تحمل رسل الملك.

وعندما تضاعف تعداد قـواته، بعث الملك ببعضها لتتولى رفع الحصار عن كلّ من اكسفـورد ونورثـأمبتون، بينما هـو نفسه تـولى احتـلال مدينـة روكستر، التي أثارها البـارونات ضده، وشرع بحصار قلعتهـا، وكانت هذه قلعة رئيس الأساقفـة وكان فيها عدد كبير من الـرجال: أي خمسة وتسعين من خيرة الفـرسان وأشدهـم، ووعد آخرون الملك بتقـديم عون سريـع له إذا ماتولى حصارهم، ولم يتراجع الملك أو يتقاعس، بل قام بتدمير الجسور التي أمل الفـرسـان بـالحصول على العـون عبرهـا، وأنشأ آلات للحصـار، ومن ثم بـدأ يقاتل القلعـة من جميع الجوانب، وسبب الـرجال الشجعـان والأشداء الـذين كـانوا يتولـون المقاومـة وقوع كثير مـن القتلى بين صفوف أعدائهم.

وبعدما استدعى البارونـات جميع حلفائهم للاجتماع بهم، غادروا لندن يـــوم الاثنين ٢٦-تشريـن الأول، مع سبعمائة فـــارس، ولكـي يمـــدوا المحاصرين بالعـون جاءوا إلى بلدة دارتفورد Dartford ومع ذلك عندما سمعوا بأن الملك عـازم على مهاجمتهم، تراجعوا مسرعين إلى لندن، واتفقوا أنهم سيجتمعون في ٣٠-تشرين ثاني مع قوة أشد وأفضل، وكانوا يعتقـدون أن المحـاصرين سيكـونـون قـادرين على المقـاومـة حتى ذلك الوقت.

ثم بعثوا سـاهر، إيرل ونشستر مـع عدد كبير آخر، بغيـة تعجيل وصول لـويس، ولكي لايكـون في نفسه أيـة شكـوك أقسموا بشكل سري أيمانـاً أنهم لم يتملكوا أراضيهم من الملك جون بشكل سرمدي. وعاد عدد كبير منهم إلى أراضيهم، بينما مكث آخرون في لندن.

وعندما اشتد الضغط كثيراً على المحاصرين داخل روكستر، حثوا الملك على التفاوض معهم، لكنه رفض الاستجابة لهذا المطلب، وقذف بالحجارة ضدهم بدون توقف، في كلّ من الليل والنهار، وكانت الآلات التي تتولى القذف خمس آلات، وكان الآن قد جرى تدمير جميع الدفاعات، والذي بقي فقط هو القلة، لأنها كانت مبنية منذ زمن قديم، وبشكل متين محكم، ولهذا قاومت الهجمات، ثم جرى ارسال اللغامين، لكن عندما تهاوى نصف القلة، تابع المحاصرون الدفاع في النصف الآخر، وكانت عمارة قائمة على تقسيمها إلى شطرين يفصل بينهما سور حجري قوي، ولم يوجد في أيامنا حصار آخر استمر بالعزم نفسه، أو لاقى مقاومة فعالة مثيلة، ثم إنه بعد مضي أيام عديدة، لم يبق لهم سوى بعض الحجر الضيقة في القلة، بدأوا يعانون من المجاعة، ومن الافتقار لبقية الأشياء، فأكلوا لحوم الخيول وشربوا الماء، وكان هذا قاسياً جداً على الذين نشأوا نشأة ناعمة.

ثم كان أن حلّت النهاية، ففي البداية جرى اخراج الذين بدوا أقل قدرة على القتال من القلعة، فأمر الملك بقطع أيديهم وأرجلهم، ولم يمض وقت طويل حتى وقعوا جميعاً بالأسر، فألقوا في الأغلال، باستثناء الذين برهنوا على أنهم كانوا من رجال الدين، واحتفظ الملك بالفرسان والنبلاء لنفسه، وسلم الأسرى الأدنى مكانة ليحفظوا في أيدي الآخرين، وأمر بشنق واحد فقط، وكان رامياً قد تولى تربيته منذ الطفولة، مع أن الاعتقاد قد راج بأنهم جميعاً سوف يقتلون بسبب الغضب العظيم للملك وحنقه، ولدى سماع بقية البارونات بنتائج الحصار، أصابهم الرعب، ومع تصاعد خوفهم اجتمعوا في لندن أو مكثوا في البيوتات الدينية، وكان بينهم قلة فقط الذين شعروا فعلاً بالأمان خلف التحصينات.

وطلب بارونات انكلترا مشاركتهم في المجمع، وبعثوا ببعض من يتولى

عرض وجهات نظرهم، لكن بحكم أن هؤلاء كانوا موسومين بحكم الحرمان الكنسي، لم يسمح لهم بالحديث، ولم يكونوا وحدهم المحرومين بل أيضاً كلّ المعادين للملك مع مساعديهم ومؤيديهم، ولأن البابا كشف له بأن الملك الفرنسي وابنه قد أبرما معاهدة مع البارونات المتقدمي الذكر، بعث إليهما برسائل متوالية، يحذرهما فيها من الإقدام على أي عمل ضد قراره بالحرمان، لكن آماله خابت، إما بسبب بغضهما الشديد لجون، أو لأنهما كانا متعجرفين فلم يرضيا بالانسحاب، أو لأنهما تسلما رهائن من البارونات الانكليز، وهكذا بعث فيليب الثاني بمارشال فرنسا إلى لندن مع قوة قوية من الرجال المسلحين، الذين توجب عليهم الإعداد مع اللندنيين من أجل قدوم ابنه لويس، الذي ساد اعتقاد أنه سيصل في وقت قريب جداً.

واستولى الملك —كما قيل— على روكستر في بداية كانون الأول، ثم انصرف بوجهه نحو ونكستر، ثم ذهب من خلال وسط انكلترا إلى الشمال، ومتن وجوده قلوب الناس الذين كانوا مترددين، وأكّد موقف مؤيديه الذين مركزهم في القلاع وفي أماكن حصينة أخرى، ثم قصد نوتنغهام، وهناك احتفل بعيد الميلاد، وجميع القلاع التي كانت هناك إما لحقها الدمار أو سلمت إليه.

سنة ست عشرة ومائتين وألف

ثم تابع الملك جون ترحاله نحو أماكن أبعد، فوصل حتى قلعة بيروك Berwick وبعدما استولى على البلدة وأفرغ المنطقة المحيطة بها من السكان عاد إلى أراضيه، وقام في أثناء ذهابه ثم أثناء إيابه بالعيث فساداً في البلاد، واستولى على الأماكن الحصينة، ولم يوجد أحد تولى مقاومته،

لأن ملك اسكوتلندا الذي كان مايزال صغيراً، هرب إلى أقصى المناطق مع جميع أتباعه.

وغزيت في تلك الآونة جزيرة إيلاي من قبل بعض حلفاء الملك تحت قيادة إيرل سالسبري، وتجمع هناك إما بسبب كون الموقع مكاناً دينياً، أو لأنه كان جيد التحصين، عدد كبير من النساء والأطفال وبعض النبلاء، وقد أغلقوا المداخل، واستعدوا للمقاومة بوضع حرس في أماكن مناسبة، غير أن الإيرل انتهز الفرصة بحدوث صقيع شديد، فعبر المستنقع، وبذلك أسروا بوساطة حشد من القوات، ونجا بعض الفرسان عن طريق الفرار فوق الجليد، وعدد كبير من النساء لنيلهن حماية الإيرل، وعندما سمع بهذا الكثير ممن اتخذ ملاذاً في الأماكن المقدسة، ارتعبوا، وهرب كلّ الذين استطاعوا إلى لندن.

ثم انطلق الملك نحو اسكس، لأنه قيل بأن كثيراً من الأماكن الحصينة كانت تستعد للدفاع، ومع ذلك عندما وصل إلى هناك مامن أحد قاومه فيما عدا قلعة كولشستر Colchester وهذه حاصرها بقوة كبيرة، واستولى عليها في الأسبوع الأول من آذار، ولم يبق هناك سوى لندن، حيث كان الفرنسيون يحتشدون مع أعداء الملك، ومع أنه قيل بأن الملك وجه جيشه إلى هناك، ذهب عوضاً عن ذلك إلى دوفر، شاعراً أنه بهذه الطريقة سيكون قادراً على اعتراض سبيل حملة لويس، أما بالنسبة للبابا، فلم يكتف بارسال رسائل متوالية، لكنه بعث أيضاً كاردينالاً يدعى غوالو Gualo الذي كان سيتولى شخصياً ادارة الأعمال، ويشغل منصب القاصد الرسولي في انكلترا، لكن لا استعدادات الملك، ولارسائل البابا، ولامحاولات الاقناع التي تولاها القاصد الرسولي، نجحت في ثني عزم لويس، لابل حتى الريح التي كانت تهب منذ وقت طويل ضده، لم توقفه.

وفي ١٤-أيار نزل لويس ورجاله على جزيرة ثانت Thanet وقد

رآهم الملك عندما وصلوا، وكان معه كثير من الأجانب والمرتزقة، الذين انضموا إلى جانب القائد الفرنسي، ولم يحاول هو حتى منع نزولهم، كما أنه لم يهاجمهم عندما استولوا على الشاطىء، وكان الآن مضطرباً في عقله باديه على وجهه آثار الحزن، لذلك تراجع إلى ونشستر برفقة القاصد الرسولي غوالو، الذي كان قد نزل في انكلترا.

وبعدما استولى لويس على الشاطىء، ذهب إلى كانتربري، وهناك انتظر رجاله الذين استدعاهم من لندن، حتى إذا جمع قواته هناك، يمكنه أن يتابع زحفه بضمان أكبر، واحتشد فرنسيون وانكليز لتأييده، وبعدما ذاع خبر وصوله، بدأوا في اثارة العاصمة، وخرج الذين انتظروا قدومه منذ وقت طويل من مخابئهم.

ثم بدأ يتخلى عن الملك ويهجره كثير من بين الانكليز الذين وقفوا إلى جانبه، وفي أثناء الزحف جرى الاستيلاء على عدد من القلاع، وقدم لويس إلى لندن يوم الخميس قبل عيد الشعانين، وقد استقبل بكل ابتهاج وسعادة، وقدموا له الولاء، وأقسموا يمين التبعية له هناك، وهكذا خيل إليهم أن جميع الجزيرة سيتم الاستيلاء عليها فوراً، وجرى الإعلان عن هذا في كلّ مكان، وبات من المعتقد أن الملك كان يائساً، لأنه أمر قبل وقت قصير بهدم عدد من القلاع في أرجاء انكلترا.

وجمع القاصد الرسولي إليه شخصياً الأساقفة وزعماء الكنيسة، ودعاهم إلى تقديم العون للملك وللمملكة، وبحضور من الملك أنزل القاصد الرسولي عقوبة الحرمان الكنسي بالأمير لويس الفرنسي اسمياً، وبضباطه ومؤيديه، وبناء عليه، وضعت أراضيهم تحت الحرمان في يوم أحد الشعانين في ٢٩-أيار، وشمل الحرمان مدينة لندن أيضاً.

ولم يثن هذا عزم لويس، فقام بمطاردة الملك، فاستولى على ونشستر وعلى الدفاعات المحيطة بها، وأعطى ذلك كله إلى كونت أوف نفر

Neversالـذي جاء معـه، ثم قام ومعـه عـدد كبير من الناس بحصـار قلعـة دوفر، التي تـولى الـدفاع عنهـا كلّ من الطبيعـة والـدفاعـات التي صنعهـا الانسان، وبعث ببعض البـارونات الانكليـز مع كونت أوف نفـر لحصار قلعة ونـدسور، وعلى كلّ حال كان البـارونات الشماليين قد لحقت بهم الهزيمـة في أثنـاء محاولاتهم الاستيـلاء على لنكـولن، وحـررت سيـدة اسمها نيكولا Nicola وكانت زوجـة شحنة القلعة، نفسهـا من هذا الحصـار بـوساطـة دفع المال، ثم ذهب البـارونـات الشماليـون مع الملك الاسكوتلندي إلى لويس، وأعطوه الولاء وأدوا مراسم التبعية له.

وفي هذه الآونـة تخلى عن الملك العديـد من أصدقـائه المقربين، نـذكر منهم: إيرل أوف وارني Warenne وهـو من أقربـاء الملك، وإيـــرل سـالسبري، وهو أخـو الملك، وإيرل أوف أرونـدل arundel والإيرل روبرت دي فير Vere وكـذلك عـدد كبيرآخر، ولقـد اتضح فيما بعـد أنهم وقفوا إلى جانب لويس بسبب الخوف وليس بسبب القناعة، وبعدما تفحص جون لـوقت طويل مـاصنعه لويس، بـات على قناعة أن تقـدمه الآن بات أقلّ من الأول، ذلك أنه تعطل لدى حصـار دوفر لوقت طويل، وبنـاء عليه نقل معسكـره إلى نورفـولك، واحتل المكـان الذي كـان ملك السكوتلنديين قد تركه.

ولدى سماع الـذين كانـوا معسكرين في ونـدسور بهذا، لاحقـوه، وبناء عليه رفـع الحصار عنها، ثـم ذهب جون إلى قلعـة أكسمولم Axholme وبعدما عاث فساداً بها بالنار والسيف حرك قواته خلال لندسي Lind-sey وعبر هولانـدا ووصل إلى لنكولن، حيث كان ملك اسكوتلنـدا قد عسكر قبل أيـام قليلة، واستولى خلال رحلاتـه على أراضي العدو، ونهبهم وأحرقهم، ولهذا لم يأت وقـت مثل هذا كانت البـلاد فيه مضرمـة بالنيران بمثل هذا القـدر، ثم عندما فر الـذين كانوا مجتمعين في لنكـولن من أمام وجهه، تراجع مسرعاً، وقد بات منهكاً من اصابته بمرض الزحار.

وفي أثناء هذه الرحلة حدث أن فقد جون قطار أثقاله في سباخ شاطىء البحر أثناء غمرها بتيار المدّ، وحدثنا رالف أوف كوغشال بأنه «فقد أثناء هذه الرحلات عند ولستريم Wellstream بيعته النقالة مع آثاره المقدسة، وبعضاً من دواب الحمولة لديه، والكثير من مؤن بيته وحاشيته، وعدد كبير من رجال حاشيته حيث غرقوا في مياه البحر، وتلاشوا وسط الرمال المتحركة، لأنهم انطلقوا بحماقة وأسرعوا قبل أن يتراجع تيار المدّ».

وعندما وصل جون إلى قلعة سليفورد، التي كان قد أخذها من أسقف لنكولن في أثناء الحرب، ازداد مرضه سوءاً، وحمل على نقالة إلى نيوآرك Newark وهي قلعة أخرى من قلاع أسقف لنكولن، كان الملك قد استولى عليها منذ زمن بعيد.

وتمدد هنا بسبب مرضه، وأنهى أيامه في ١٩-تشرين الأول، بعدما حكم لسبع عشرة سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام.

وكان جون في الحقيقة أميراً عظيماً، لكن نادراً ماكان سعيداً، وكان مثله مثل ماريوس Marius قد عانى من الصعود والهبوط مع الحظ، وكان لطيفاً وكريماً مع الغرباء، وسلاباً نهاباً لشعبه، يثق بالأجانب ويفضلهم على رعيته، ولهذا تخلى عنه بالنهاية رجاله وهجروه، وبقي القليل منهم من حوله، وبما أن جلّ قواته كانت إما مرتزقة مكتراه أو أجانب، فقد تجمعت بسرعة في ذلك المكان، وبدت وكأنها مسلحة استعداداً للحرب، وحملت هذه القوات جسده بعيداً حتى ووركستر Worcester وكان هذا لالأنه طلب أن يدفن هناك، لكن بسبب أن ذلك المكان بدا في ذلك الوقت مكاناً آمناً، حيث يمكن لمؤيديه أن يجتمعوا للتباحث حول ماينبغي القيام به بعد وفاته، وبما أنه كان أقرب إلى البدانة فقد دفنت أحشاءه في دير كروكستون Croxton.

خاتمة

وهكذا مات الملك جون، وكان، حسبما كتب متى الباريسي بعد خمسين سنة: «قد تحرر من آلام التفكير، ومن حياة كثيرة الاضطرابات ومن الجهد الضائع»، ولاشك لابل من شبه المؤكد أن موته غير المتوقع قد أبقى انكلترا لأسرة بلانتغنت، لأن وريثه الصغير، هنري الثالث، الذي كان مجرد طفل في التاسعة من عمره، لم يكن له أعداء شخصيين، وبسرعة نال الحماية والمساعدة من قبل أكثر البارونات فروسية، وكان البابا انوسنت الثالث وصياً يقظاً مرعباً، وعظيم الإصرار نحو الملك الجديد، وبدأ التأييد للويس الفرنسي يتلاشى تدريجياً، لأن الثوار الانكليز توصلوا إلى قناعة أنه أنفع لهم أن يكون على العرش طفل ضعيف بدلاً من الملك الفرنسي المنتظر، الذي كان قوياً ويتمتع بالكفاءة.

ونشأ هنري الثالث الذي حكم لمدة ست وخمسين سنة، في وسط ديني، فكان رجلاً لطيفاً، وحامياً للفنون الدينية، وذكياً لكن ليس بارعاً، عاش مع مسؤولية الاهتمام بالمظاهر الملكية، لكن حتى عندما كان راشداً بالغاً، لم يستطع ترجمة هذا الاهتمام إلى واقع مؤثر في العمل السياسي، الذي كان ضرورياً للملكية الناجحة في العصور الوسطى، وكان مثله مثل أبيه قد وجد أنه من الصعب كسب ثقة باروناته والاحتفاظ بها، وكذلك تورط مثل أبيه في صراع حاد معهم، وتعاظمت مشاكله بالاخفاق الإنكليزي في اعادة الاستيلاء على الممتلكات البلانتغنتونية المفقودة، وذلك على الرغم من الانفاق المالي الهائل، واستمرت بعض هذه الحقائق، أو كلها: أي الضعف الملكي، وانعدام الثقة بين التاج والبارونات، وتناقص الواردات الحكومية، والاخفاق في الحرب مع

فرنسا، وتكررت بالوقوع في القرون التالية من وقت إلى آخر، ولهذا إن الملوك الذين كانوا مثل هنري الثاني اداريين أكفاء، وقادة أشداء، وأمراء عسكريين فاعلين، قد عدّهم رعاياهم في غالب الأحيان نموذجيين، وقد كسبوا اعجاب الأجيال اللاحقة.

وجاء في تاريخ وليم المارشال [حوالي١٢٢٦] الذي كان الوصي والحامي للشاب هنري الثالث قوله شعراً:

بسيف الرب، إذا ماتخلى الجميع عن الملك،

هل تعلم ماالذي كنت أنا فاعله؟

كنت سأحمله على كتفي خطوة خطوة،

من جزيرة إلى جزيرة ومن منطقة إلى منطقة،

ولن أخذله حتى لو عنى ذلك التسول من أجل خبزي

ملوك انكلترا وفرنسا

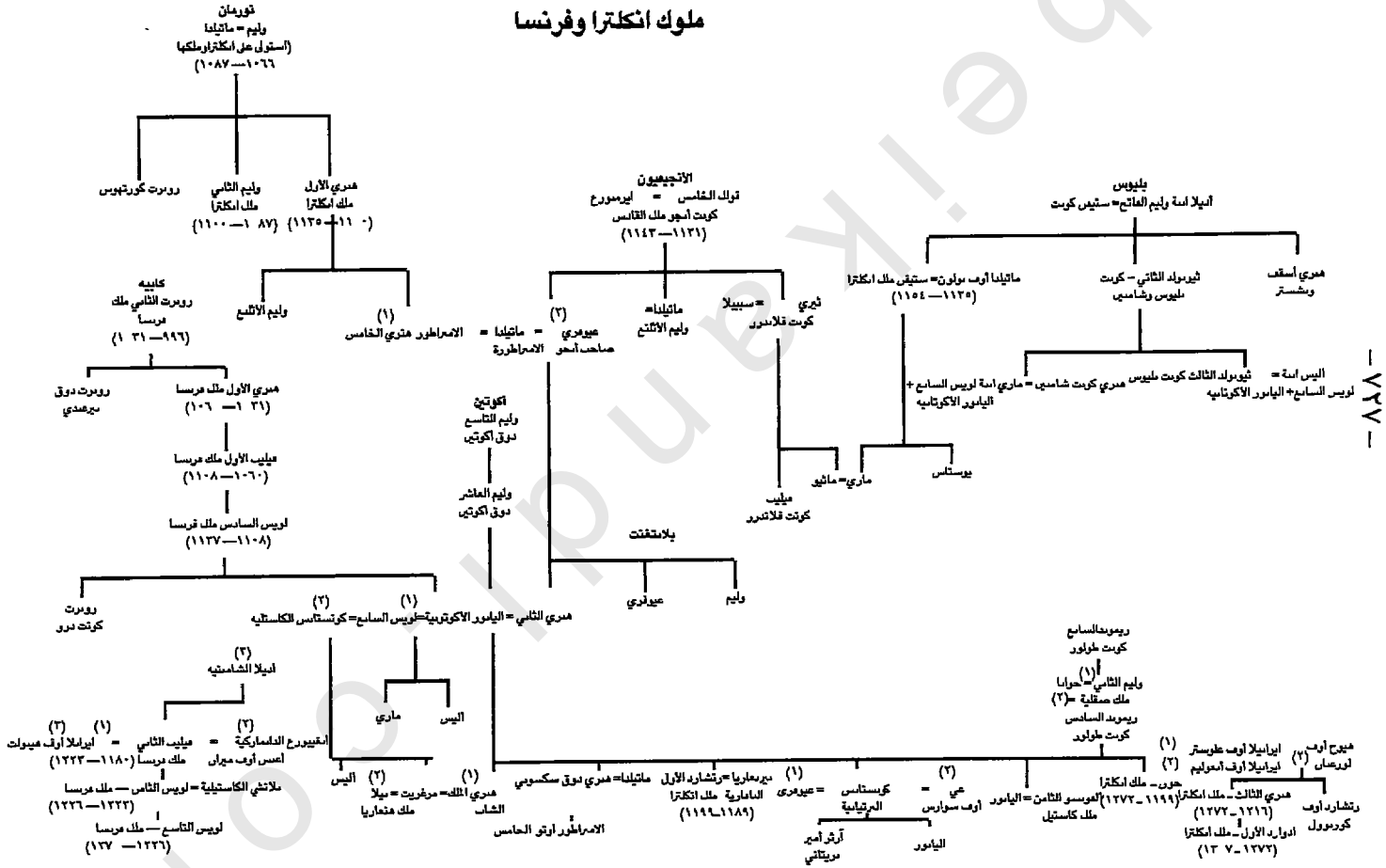

obeikandl.com

ā ꝯio beatorum apl̄oꝝ chorꝰ. talem retributionē re
cipiunt p̄ corruptibilibus.

obeikandl.com

السفصل الروماني بوتيوس الذي كتب بحثا عن الموسيقى بال الاعجاب الكبير من قبل مؤرخي العصور الوسطى

obeikandl.com

الحواشي والتعليقات

١ — بيت الشيطان:

« من الشيطان جاءوا والى الشيطان سيعودون» هذا ما قيل عن كونتات أنجو، ورواه جيرالد أوف ويلز، في إشارة إلى اسطورة تحدثت عن أن كونتات أنجو وملوكها قد انحدروا من ابنة الشيطان، وجاء في حكاية جيرالد أن واحداً من كونتات أنجو القدماء عاد من احدى رحلاته مع امرأة اسمها ميلوسين، وكانت مشهورة لجمالها، وقد تزوج منها، وكان حولها كثيراً من الأمور الغريبة، أعظمها إثارة كان غيابها الدائم عن حضور القداس لدى مباركة الحشود وتعميدها، وكشفت حقيقة أمرها عندما أرغمها زوجها على البقاء ورؤية جسد المسيح، وهو مشهد ما من شيطان يمكنه مواجهته، وهربت ميلوسين من النافذة وهي تولول، ولم تر ثانية، وخلفت وراءها ولدين، منهما انحدر كونتات أنجو.

وروج لهذا النوع من الحكايا ت مؤرخو الأسرة للدعاية، ولمسايرة روح العصر، ولتغطية الحقبة المبكرة المجهولة من تاريخ الأسرة، وكان الناس في القرن الثاني عشر يستمتعون بهذه الحكايات ويصدقونها حتى ليقال بأن رتشارد قلب الأسد عقب وهو يضحك لدى سماعه قصة أصل أسرته بقوله : « عجباً لو أننا فقدنا طبيعتنا البشرية، فنحن جئنا من الشيطان، ووقتها لابد من أن نعود الى الشيطان » .

٢ — الطاغية التقي :

كان فولك نيرا وحشاً مرعباً وحاجاً تقياً ، ولقد كان من أكثر الشخصيات إثارة في القرن الحادي عشر ، وكان النتاج الأكثر تطرفاً لقرن سيطرت فيه العواطف والانفعالات على سلوك الناس ، وكان الدين سلعة لتبادل المنافع مع الرب ، وهكذا تماشى سلوكه وعنفه مع روح العصر .

ففي سنة ٩٢٢ نال نصراً عظيماً ضد كونت بريتاني ، وتحقق له هذا عندما طار الجيش المتراجع فأحدث دماراً هائلاً بكل ما مر به ، فقتل وسلب ونهب وأحرق ، وإثر هذا النصر الرهيب أحرق زوجته الأولى حين وضعها على سفود وشواها لاتهامها بالكفر .

ومع هذا كله قام فولك بالحج إلى القدس ثلاث مرات ، وذلك في وقت تعذر فيه على كثيرين القيام برحلة واحدة ، كما أنه زار روما ، وبنى ديرين أحدهما قرب تور والثاني قرب أنغر ، ومع تطرفه هذا كان بارعاً في السياسة ، وفعالاً في حملاته العسكرية واستراتيجياً ناجحاً في بناء القلاع ، ولا شك في أنه كان قائداً صاحب قدرات وحشية خارقة .

٣ـ الشرق ضد الغرب :

كرست الكنيسة في العصور الوسطى جهودها على تحقيق الوحدة المسيحية المنشودة ، لكنها لم تستطع قط الوصول الى ذلك وتحقيقه ، ولم يظهر الاخفاق بشكل مؤسف في خلال العصور الوسطى أكثر منه في سنة ١٠٥٤ ، عندما بعث البابا ليون التاسع ببعثة دبلوماسية الى القسنطنطينية لتتهم البطركية هناك وتوبخها على أنها «عاصية وفاجرة وابنة فاسدة ، تتمتع في دارها بالسلام والراحة والرخاء وترفض الاسهام بدور في القتال المسيحي الذي أثارته الكنيسة الأم المقدسة في روما » ولم يكن مدهشاً

أن « الابنة» تخلت عن اخلاصها وتبعيتها كلياً لروما، وعلى هذا كانت سنة ١٠٥٤ سنة الانفصال الدائم بين الكنيستين : اللاتينية الكاثوليكية في الغرب ، والاغريقية الأرثوذكسية في الشرق .

وكان الخلاف قائماً يعتمل بينهما منذ زمن قديم ، يرقى حتى إلى أيام الامبراطور المسيحي الأول ، قسطنطين الكبير ، وذلك عندما قرر هذا الامبراطور تدشين المدينة الاغريقية في بيزنطة ، لتكون القسطنطينية عاصمة المسيحية ، ولتكون روما جديدة ، وصحيح أن روما والقسطنطينية كانتا سنة ٣٣٠ بالأصل متحالفتين ، لكن بابوية روما أخذت بالتدريج تبتعد وتتجه نحو الانفراد، فزادت من سماتها الغربية ومن انشغالاتها في الغرب، ولم يعد في روما بعد سنة ٧٥٢ ولا بابا اغريقيا، أو يتحدث الاغريقية، وفي تلك الأثناء، الذي كانت الامبراطورية البيزنطية ماتزال فيه قوية ومتقدمة، ربط البطاركة كنيستهم تماماً مع مصالحهم بأباطرتهم، ودعموهم بكل امكاناتهم وطاقاتهم، وكان من الممكن حتى في القرن الحادي عشر ايجاد حلول للخلافات العقائدية بين الكنيستين، وألحت البابوية الغربية على الانضباط والطاعة والنظام الحاد، ولم تسمح قط لايجاد بدائل دينية ألطف بناءً، وعليه بات حتمياً انفصال الغرب اللاتيني عن الشرق الاغريقي، وابتعادهما عن بعضهما.

وظلت القسطنطينية حتى سنة فتحها في ١٤٥٣ من قبل العثمانين مركزاً لكنيسة اغريقية عالية المعرفة والثقافة، وكان أعظم انجازات هذه الكنيسة تحويل الشعب الروسي إلى المسيحية الأرثوذكسية، وفي روما وضع البابوات أنفسهم على رأس حركة اصلاح الكنيسة الكبرى في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وشرعت في ظل غريغوري السابع (١٠٧٣—١٠٨٥) العدواني ومن بعده خلفائه على عرش البابوية في فرض إرادتها على جميع أرجاء المسيحية الغربية بشكل لم يكن له نظير من قبل.

وكان البابا بالنسبة لفولك نيرا المتوفي سنة ١٠٤٠، عندما عاد من زيارته الأخيرة للقدس مجرد شبح وشخصية لا أهمية لها، غير أنه بعد قرن عندما حكم حفيده فولك الخامس صاحب أنجو، المملكة اللاتينية في القدس، كان بابوات روما بلا منازع قادة المسيحية، والمسؤولين الروحيين، لا بل القادة الدينيين، للحركة الصليبية.

٤ـــ قلاع أنجو:

مايزال من الممكن رؤية بعض قلاع أنجو، التي بنيت في أوائل القرن الحادي عشر، وهذه القلاع بين أقدم الحصون التي بنيت بالحجارة، وبقيت من العصور الوسطى، وهي تبدو قوية حتى اليوم، وتحكمت بعض القلاع بالمناطق التي أحاطت بها، أو بطرق المواصلات، أو كانت بمثابة نقاط دفاعية، أو مواقع استراتيجية للوصول إلى هدف مرسوم مثل القلاع التي بناها غيوفري مارتل حول تور للاستيلاء عليها، وكان ذلك في سنة ١٠٤٤، وعلى كل حال كان فولك نيرا من أكثر الكونتات بناء للقلاع، حتى يمكن القول إنه أول القادة الذين أدركوا قيمة موقع القلعة للأعمال الدفاعية وأيضاً لتكون قاعدة للأعمال الهجومية، مما أعطاه السمعة أنه كان استراتيجياً مبدعاً.

٥ـــ أبيلارد وهليوس:

كان أبيلارد استاذاً مشهوراً في باريس، وفقيهاً وخطيباً أصيلاً، ووضعته قدراته في قلب الحياة الثقافية في غربي أوربا في القرن الثاني عشر.

وكان قد ولد في بريتاني في سنة ١٠٧٩، وعاش لسنوات باحثاً متجولاً، وذلك كنموذج لعصر لم تكن فيه بعد جامعات مؤسسة أو مراكز

علمية رئيسية فيها علماء متميزين يتبارون فيقدمون فرصاً أمام الطلبة الراغبين بالمعرفة.

وتظهر روايته عن حياته «تاريخ مصائبه» كيف دمر أفكار وسمعة عدد من أساتذته برعونة أكسبته العداوات، وعندما صار في الثلاثينات من عمره، كان المعلم في باريس، حيث جذبت عبقريته إليه حشداً من الطلبة ورسخت القاعدة لإقامة جامعة المدينة العظيمة.

وفي باريس، عندما كان في ذروة شهرته، قابل هليوس، ووقع بحبها، وكانت أصغر منه بنحو عشرين سنة، كما وكانت الحفيدة الجميلة والمتعلمة لفولبرت، كاهن كاتدرائية نوتردام، وكانت العزوبية متوقعة في الكنيسة وإن لم تكن مطلوبة بشكل حتمي، وكان التواصل مؤذياً جداً لحياته وعمله، لكن ليس مأساوياً، غير أن هليوس أنجبت ولداً، ومن ثم أقيم زواج سري لإطفاء غضب فولبرت، ومع ذلك تابع الكاهن معاملتها بسوء، ولهذا أخذها أبيلارد أخيراً إلى دير في أرغنتيل -AR GENTEUiIL، واعتقد فولبرت أن أبيلارد عازم على هجر حفيدته وابقائها راهبة متبتلة الحياة،ولذلك خطط للقيام بانتقام رهيب ، فأرسل خدمه لاقتحام غرفة أبيلارد في الليل وخصيه ، وشعر أبيلارد اثر هذا بالرعب والإذلال الشديد فصار راهباً في الدير الملكي الكبير الحامل لاسم سينت دنس وبناء على تعليماته ، أدخلت هليوس ـ التي كانت في التاسعة عشرة من عمرها ـ وهي في حالة قنوط ، الى الدير الذي أخذها أبيلارد إليه .

ورأى فيه معاصروه أنه صاحب تأثير خطر ، وقد غادر في ثلاثينات القرن الثاني عشر سينت دنس ، ليستأنف التدريس ، وجذب اليه المعارضة من المحافظين في الكنيسة الذين قادهم برنارد أوف كليرفو ، وهو راعي ديرسسترشياني مرعب ، وكانت غلطة أبيلارد أنه تفوه بشكل علني ومقنع أن العقيدة المسيحسة ينبغي إخضاعها للبحث العقلاني ،

وكان هدفه كرجل دين مؤمن هو تعميق الفهم ، وليس لغم الايمان ، وتبنى أيضاً موقفاً متطرفاً، حيث قال النية هي التي تقرر فيما إذا كان العمل المقترف ذنباً ، وكان هذا كثيراً جداً بالنسبة للكنيسة المتجذرة ، وهكذا أدين بالهرطقة في سنة ١١٤٠، أي قبل عامين من وفاته .

ويتذكر أبيلارد هذه الأيام على أنه محب متفاني ويظهر «التاريخ » والرسائل التي تبادلها مع هليوس ، عندما عاش كلاهما داخل الدير ، أنه امتلك عاطفة وحباً يائساً لم يكن لا هو ولا هي قادرين على التخلص منه.

وانتشيا بالتواصل الذي كان فيما مضى ، وتألما بسبب متعتهما الجنسية ، ولم يبديا اهتماماً كبيراً نحو ردات فعل المجتمع تجاه علاقتهما أكثر من المقارنة فيما بينهما وبين آدم وحواء ، والنتائج المدمرة للعلاقات الآثمة ، وذلك حسب قدرة أبيلارد على تفسير الكتابات المقدسة .

وحاول أبيلارد أن يقدم النصائح الروحية لهليوس ، وأشار عليها أن تحول حبها الى حب للرب ، وأخذت أخيراً بهذه النصيحة ، فغدت منذ ١١٢٩ رئيسة لراهبات دير أرغنتيل ، ثم صارت راعية دير باراكليت paraclete وهو دير ساعد أبيلارد على إنشائه ، وحققت لها ثقافتها وعزة نفسها وآلامها وصبرها وقدراتها الادارية الاعجاب والاحترام ،وفي القرن التاسع عشر نقل قبر المحبين الى مقبرة بيري ـ لاشي Pere - L achaise في باريس حيث ما تزال الورود توضع عليهما إحياء لذكراهما .

٦ـــ فولك الخامس ملك القدس:

جاء في سنة ١١٢٨ وفد أرسله بلدوين الثاني ملك القدس، إلى فرنسا، لأنه لم يمتلك ولداً ذكراً يخلفه في حماية الضريح المقدس، بل

أربع بنات فقط، وطلب الوفد من لويس السابع اختيار واحد من نبلاء فرنسا مناسب للزواج من ميليساند أسن بنات بلدوين، وليكون خليفة لبلدوين بعد وفاته، واختار الملك فولك كونت أنجو ومين، وتورين، وبناء عليه سافر إلى الشرق للزواج سنة ١١٢٩، وكان وقتها في الحادية والأربعين من عمره، وقد سلف له أن حج إلى القدس، وكان أرملاً يمتلك كل المؤهلات ليكون ملكاً للقدس، ثم إنه كان مطمئنا لممتلكاته في فرنسا حيث تركها في يدي ابنه الشاب، لكن المبشر بالكفاءة، أي غيوفري، الذي سيتزوج من ابنة هنري الأول ملك انكلترا، وبذلك مهد الطريق لتملك اسرة بلانتغنت لإنكلترا.

٧— غيوفري بلانتغنت:

تزوج في سنة ١١٢٨ غيوفري بلانتغنت ابن فولك ماتيلدا، الامبراطورة الأرملة، وابنة هنري الأول ملك انكلترا، وقد وعدها هنري الأول بخلافته في انكلترا ونورماندي، لكن عند وفاة هنري الأول سنة ١١٣٥، استولى ستيفن أوف بليوس، وهو ابن أخت لهنري وأثير لديه، على المملكة والدوقية.

وكان كونتات بليوس منذ زمن بعيد منافسين للأنجيفيين الذين كانت أراضيهم محاذية لممتلكاتهم، كما ان ممتلكاتهم كانت تقريباً مطوقة لممتلكات التاج الفرنسي، وتشكلت بليوس من شطرين هما بليوس وشامبين، وقدقسما مراراً بين الورثة، وعندما أصبح هيوج كونت شامبين عضواً في الداوية سنة ١١٢٥، آلت كونتيته إلى ابن أخيه ثيوبولد الثاني صاحب بليوس، وهو حفيد وليم الفاتح، ملك انكلترا ودوق نورماندي.

وكان أخوا ثيوبولد: ستيفن كونت أوف مورتين، وهنري أسقف أوف ونشستر قد كسبائقة خالهما هنري الأول ملك انكلترا وولايته لهما وحمايته،

وفي سنة ١١٣٥، أحكموا الأمور ودبروها بحيث يتولى ستيفن أراضي هنري وليس ثيوبولد.

وقاد في سنوات ١١٣٦ و ١١٣٧ و ١١٣٨ غيوفري وماتيلدا الحملات ضد نورماندي، وغزت ماتيلدا في سنة ١١٣٩، انكلترا بمساعدة روبرت ايرل غلوستر، وكان من أعيان النبلاء الأنغلو — نورمان، وتركت غيوفري ليتولى السيطرة على الدوقية، وخلال سنوات استطاع الاستيلاء عليها، وفي تلك الأثناء، ظهر ابنه هنري ممثلاً لأمه ماتيلدا، وأخيراً وريثاً لها.

وكانت دوقية أكوتين في القرن العاشر دوقية واسعة موزعة بين عدة كونتيات واقطاعيات أصغر، وكانت تمتد جنوباً حتى جبال البرانس، وكان الدوق وليم الكبير المتوفى سنة ١٠٣٠، قد مارس سلطانه في بواتو، وبيرغورد، ولى مارشي، ومناطق أخرى، وفي سنة ١٠٦٣، استولى وليم الثامن على غسكوني، وتزوج ابنه وليم التاسع (١٠٨٦— ١١٢٦) من فيلبا أوف طولوز، وكان متميزا بكونه من التربادور وصاحب توجهات جنوبية كبيرة، وعلى هذا نشأت إليانور الأكوتونية ابنة وليم العاشر (١١٢٦— ١١٣٧) ووريثته في أجواء ثقافية عالية وطرائق مصقولة في لانغدوك.

٨— غيوفري وماتيلدا:

كان غيوفري الأشقر، كونت أنجو، الأول في سلالته الذي حمل لقب بلانتغنت، وهو لقب ناله لوضعه قشة مكنسة على قبعته، وقد صار كونتاً لأنجو في سنة ١١٢٩، بعد ذهاب أبيه فولك الخامس إلى القدس.

وكان غيوفري رجلاً بارعاً ، ووصف بالأناقة والجمال من قبل معاصريه ، فقد كان طويلاً ، بهي الطلعة وقوياً وبشعر أشقر أقرب الى الاحمرار ، وبعينين نافذتين ، كما كان عالي الثقافة ، يتفاخر بتذكر أفاعيل

أجداده ، وقد مثل الفروسية المثالية ، ومع ذلك كان هادئاً جداً وعنيفاً الى حد التوحش ، وتركزت جهود حياته على متابعة العمل في سبيل حصول زوجته على ميراثها في نورماندي وانكلترا ، واهتم بشكل رئيسي بالاستيلاء على نورماندي ، التي كانت العدو الرئيسي لأنجو ، ونجح في ذلك وعلى هذا كانت اسهاماته بالنسبة لانكلترا ضعيفة .

وتزوج غيوفري من ماتيلدا سنة١١٢٨ ، وكان هو وقتها في الخامسة عشرة من عمره في حين كانت هي في السادسة والعشرين ، وكان هذا الزواج مثله مثل كثير من زيجات العصر ، صفقة معدة ، خطط لها هنري الأول والد ماتيلدا ، حتى يحول بين أنجو وبين التحالف مع الشماليين الفرنسيين المعادين له ، وليساعد ماتيلدا في خلافته في نورماندي وانكلترا .

وكانت قد تزوجت للمرة الأولى من هنري الخامس امبراطور ألمانيا ، الذي توفي سنة ١١٢٥ ، وأرسلت للمرة الأولى إلى ألمانيا عندما كان عمرها في الثانية عشرة ، وأعيدت إلى أبيها بعد اثنتي عشرة سنة ، أي سنة ١١٢٦ ، لتكون وريثته الشرعية الحية الوحيدة .

ومن البداية نظرت بإزدراء ، نحو زوجها الثاني الذي لم يبلغ سن الرجولة بعد والذي كان أدنى منها اجتماعياً، ويبدو أنها لم تشعر قط نحوه بدفء عاطفي .

ومثل هذا لم يحب غيوفري ماتيلدا ، ومع ذلك حافظاً على تعاونهما ، وعلى استغلال زواجهما المفتقر الى الحب ، من أجل مرابح سياسية مشتركة ، وأنجبا من الأولاد ما هو ضروري لاستمرار سلالتهما ، ثم ذهب كل منهما في طريقه ، إنما دون أن يفترقا أويتباعدا عن المطامح السياسية الشخصية .

وجلبت ماتيلدا لنفسها كراهية الذين توجب عليها جذبهم ، ففي

أيام حكمها القصيرة لانكلترا ١١٤١ــ ١١٤٢ ، بعد الانتصار على ستيفن رفضت الوقوف لتحية اثنين من مؤيديها الرئيسيين ، وهما خالها ، الملك داود ملك اسكوتلندا مع أخيها غير الشقيق ايرل روبرت صاحب غلوستر ، فأغضبتهما بذلك غضباً عظيماً يضاف الى هذا أنها أصرت على فرض ضرائب ثقيلة على سكان لندن ، وبذلك حولت إخلاصهم لها وتعاونهم معها الى كراهية ومقاومة ، فأرغمت على الفرار من المدينة ، وصحيح أنها امتلكت إرادة حديدية لنيل ما عدته ميراثها ، كانت شخصيتها العائق الرئيسي في وجه نجاح قضيتها .

فقد كانت متكبرة ، لا تعرف الليونة وقد انتقدها معاصروها كثيراً لافتقارها للسمات الانثوية وكانت صورتها المستمرة صورة الابنة التي كانت تقاتل أبيها هنري الأول عندما مات وأنها لم تحاول التصالح معه في ساعاته الأخيرة ، ومع ذلك كانت بهية المنظر ، شجاعة ، وامرأة قوية في عصر تحكم به الرجال وكانت تستطيع أن تنال اخلاص الآخرين ، لكن ليس اخلاص زوجها .

٩ — الوزير غير الرسمي :

كان لقرابة ربع قرن الأب سوكر المستشار الرئيسي لكل من لويس السادس (١١٠٨ــ ١١٣٧) ولويس السابع (١١٣٧ـ ١١٨٠) ، أي من سنة ١١٢٧ حتى سنة وفاته في ١١٥١ .

وكان رجلاً من أصل وضيع ، وقد صعد في خدمة الكنيسة والعرش بفضل قدراته الشخصية، وصحيح أن سوكر لم يكن لديه منصب رسمي في الحكومة الملكية ، لكن النصائح التي أسداها لكل من لويس السادس ولويس السابع ازدادت قيمتها بإلحاحه على الجانب المقدس والطقوسي للملكية ، فقد أعطى ذلك أهمية فاقت الحقيقة .

وقد أعاد بناء دير كنيسة القديس دنس ، وهو مكان دفن الملوك الأوائل ، وكان البناء وفق الطراز القوطي ، مزيناً بشكل كبير وجميلاً ، قصد منه أن يكون مكاناً مكرساً لعبادة الرب ، وفي الوقت نفسه لتمجيد الملوك الفرنسيين ، وشارك سوكر في الاحتفالات الملكية الرسمية التي أظهرت روابطهم بالماضي العظيم ،ففي سنة ١١٢٤ حمل لويس السادس ما يفترض أنه راية شارلمان ، وكانت موضوعة على مذبح كنيسة القديس دنس ، وخاطب الناس بشكل حماسي ملتهب وحشد جيشاً هائلاً ليحارب به ضد الامبراطور هنري الخامس .

وعلى الرغم من هذا المظهر كان الملكان ضعيفان اقترفا الكثير من الأخطاء ، ومع ذلك ساعد سوكر على تطوير شخصية ومكانة الملكية الفرنسية ، وتولى سوكر تعليم الملكين ، ووجهما عملياً وساعدهما على ادارة أراضيهما .

وكان لويس السادس ملكاً عسكرياً أخضع البارونات اللصوص الذين نهبوا وسلبوا الأراضي الملكية، ووصفه سوكر بأنه كان رجلاً كانت روحه كبيرة مثلما كان جسده هائلاً، فقد كان بديناً يحب الملاذ والطعام والبهجة ، حتى صار يعرف باسم الملك البدين وغدا في سنيه الأخيرة لا يستطيع امتطاء الخيول، ومثله برهن ابنه لويس السابع عن تدني الكفاءة والضعف الاداري ، وكان الزوج الأول لاليانور الأكوتانية ، وقد تصرف على طريقة الزهاد فكان ينام في الغابة بدون حراسه لوحده ، ولهذا أحبه شعبه ، ومع ذلك كان لويس السابع يصلح لأن يكون ملكاً في عصور مضت حيث يمكنه أن يخفي ضعفه وعجزه خلف واجهة من اللطف والحكمة .

١٠ — أول أعمال توسع أسرة بلانتغنت

اكتمل الاستيلاء على نورماندي من قبل غيوفري بلانتغنت،كونت أنجو،سنة ١١٤٤،واحتاج هذاالاستيلاء الى قرابة تسع سنوات من الصراع،استفاد خلالها هو وزوجته الامبراطورة ماتيلدا من ادعائها الحق بحكم انكلترا ونورماندي، وكان في سنة ١١٣٥،بعد وفاة هنري،استولى ستيفن كونت بليوس عليها معاً ،لكن الآن ضمن الأنجيفيون لأنفسهم قاعدة يستولون منها على انكلترا.

وارتبطت نورماندي بانكلترا لأن عدداً من النبلاء امتلكوا أراضي على جانبي القنال، وفي الحقيقة بذل ستيفن قليلاً من الجهد لكسب اخلاص النورمانديين،فقد زار الدوقية مرة واحدة، ومع ذلك كره النورمانديون جيرانهم الأنجيفيين وأعدائهم التقليديين، وقاوموا بعنف حملات غيوفري،لكن وقوع الملك ستيفن بأسرماتيلدا في عام ١١٤١كان له أثره البالغ على معنوياتهم،ففي تلك السنة استسلمت لغيوفري قلعة تلو الأخرى في نورماندي، ثم تابع نشاطه حتى عام ١١٤٤ حيث استولى على روان، ومن ثم نصب دوقاً على نورماندي، وفي عام ١١٤٥ سقطت آخر قلاع نورماندي إليه.

ونتيجة لهذا الاستيلاء، صار الأنجيفيون يحكمون نصف المملكة النورماندية— الانكليزية، يضاف إلى هذا بات من غير الممكن اخراجهم من غربي انكلترا، وأصبحت قضيتهم أقوى وواعدة بالنسبة للمستقبل، فبعد سنة ١١٤٤، ما من واحد من كبار البارونات ذوي الأملاك الواسعة في نورماندي التحق بشكل دائم بستيفن ووقف إلى جانبه.

١١—ملك شجاع ومجنون :

كان الملك ستيفن (١٠٩٧؟ — ١١٥٤) الولد الثالث لستيفن كونت أوف بليوس وتشارتر الذي كسب سوء سمعة انتشرت في أوروبا كلها،

لأنه هرب من أنطاكية أثناء الحملة الصليبية الأولى، وكانت أم هذا الملك آديلا ابنة وليم الفاتح، وكانت ذات رأي متصلب، لذلك أعادت زوجها إلى ما وراء البحار.

وأرسل ستيفن الشاب إلى بلاط خاله هنري الأول، ولعل ذلك كان سنة ١١١٣، ومنح أراضي واسعة في كل من نورماندي وانكلترا، مما جعله واحداً من أغنى ملاك الأراضي الأنغلو— نورمان.

وفي سنة ١١٢٦، أقسم ستيفن مع عدد كبير آخر، بقبول خلافة ماتيلدا ابنة هنري لأبيها، والذي حدث على كل حال أنه لدى سماعه بخبر وفاة هنري في ١— كانون أول عام ١١٣٥، تحرك كما يبدو وفق خطة كانت مرسومة باحكام، وعبر إلى انكلترا، وتم قبوله ملكاً في لندن، واستحوذ على خزائن الأموال في ونشستر، وجرى تتويجه في ٢٢— كانون أول، وتوجه إثر هذا رسول مسرع إلى نورماندي، وهناك قبله البارونات النورمان بعد تردد، دوقاً لنورماندي، وبذلك أعاد ستيفن إحياء مملكة هنري الأول فيما وراء القنال، وبدا في أوائل سنة ١١٣٦، وضعه مضموناً، ولدى عقده لبلاطه في عيد الفصح، حضره عدد كبير من كبار ملاك الأراضي، بما فيهم أخو ماتيلدا لأبيها، ايرك روبرت أوف غلوستر، الذي قدم له الولاء. وتمكنت ماتيلدا مع مؤيديها من احتلال أجزاء من جنوبي نورماندي، وكانت هناك أعمال عصيان فردية ضد ستيفن في غربي انكلترا قادها بلدوين أوف ردفير Radvers، وأخرى في الشمال قادها ملك الاسكوتلنديين.

وتبعاً لمؤرخي أيامه، كان ستيفن فارساً جيداً، لكن في المجالات الأخرى كان أحمقاً، اعتاد أن يصدر مراسيم وأوامر كانت زائدة في قسوتها ووحشيتها، وما من أحد شك بشجاعة ستيفن الشخصية، ففي معركة لنكولن في ٢— شباط سنة ١١٤١، صمد على قدميه وقاتل لمدة طويلة، أولاً ببلطته قبل ان تنكسر ثم بسيفه قبل أن يقع بالأسر.

لقد كـان متقلبا، ساعـة كريما شجاعاً، وأخـرى خسيساً خائنـاً، ينهب رعايـاه، ويصدر أحكامـاً خاطئة، وهو لم يتمتـع قط بشخصية ومـؤهلات رجـل الدولـة، وهو مـا تطلبته الأوضـاع السياسيـة في القرن الثـاني عشر، لذلك أخفق.

١٢— الاسكوتلنديون المتوحشون:

حكـم داود الأول ملكـا لاسكـوتلنـدا مـن ١١٢٤ إلى ١١٥٣، وكـان بالوقت نفسه اداريـاً جندياً، وحامياً للكنيسة، ونهاباً قاطعـاً للطريق، وقد غزا في سنة ١١٣٨ المنطقـة الشمالية من انكلترا حتى يوسـع أملاك أسرته وليضـم المنطقة التـي قامـت فيما بين نهري التـاين وفـورث، ولم تكن قـد صارت انكليزية تماما ، بل كانت آنذاك انكليزية — اسكوتلندية.

وأثـار بأعمالـه القاسيـة مقـاومة شعبيـة لم تعـرفها المنطقـة منذ مـائتين وخمسين سنة مضـت، منذ أيام الفـايكنغ، وقد تحالـف النبلاء مع العـامة للتصدي له، وقـاتله الانكليز تحت رايات حماتهم من القـديسين، وكانت حـربهم ضد الاسكـوتلنـديين المتـوحشين حربـاً مقـدسـة، وكان بعـض الـرجال الاسكـوتلنـديين نصف العـراة مـازالـوا وثنيين، وحصل الملـك الاسكوتلندي على أسلاب كثيرة، ومد سلطانـه نحو الجنوب، لكن لبعض الوقت فقط.

١٣— الحملة الصليبية المأساوية:

استـولى زنكي سنـة ١١٤٤ على الـرهـا وأزال الحكم الصليبـي منهـا، وبذلـك أسقط أولى الـدويلات الصليبية تـأسيساً في المشرق، وكـان هذا من الأسباب الأسـاسية لقيام الحملة الصليبية الثـانية، التي قادهـا لويس

السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور ألمانيا، ووصلت جيوش الحملة إلى أنطاكية بعدما كادت أن تصبح أشلاء، وبعد الوصول إلى القدس تقرر مهاجمة دمشق، وفعلا حوصرت المدينة وأخفق الحصار.

وكان مع لويس السابع زوجته اليانور الأكوتونية، ولم يكن من السهل عليه قيادتها وضبطها، ففي أنطاكية حاولت مع عمها ريموند أمير أنطاكية أن تقنع لويس بالبقاء هناك للعمل ضد حلب، لكنه رفض لأنه أراد الوفاء بنذر الحج والوصول إلى القدس، وراجت في أنطاكية أخبار أن العلاقة فيما بين اليانور وعمها تجاوزت الأمر الطبيعي، وصدق لويس ما قيل، لذلك جر زوجته وأبعدها بالقوة، وأدى هذا فيما بعد إلى التخلي عنه سنة ١١٥١، ومن ثم الزواج بهنري الثاني، وبذلك خسر لويس السابع زوجته وخسر معها دوقية أكوتين.

١٤— بداية ونهاية:

لم يكن الزواج فيما بين اليانور الأكوتونية ولويس السابع ناجحاً لعدة أسباب، منها : كان الملك يرغب بالحصول على وريث ذكر، وهي قد أنجبت له ابنتين فقط، ولدت أولاهما سنة ١١٤٥ وثانيهما سنة ١١٤٩، كما وكانت الفوارق بينهما عظيمة جداً، فهي عندما تزوجت من لويس، شعرت وكأنها تزوجت من راهب وليس من ملك، وكان لويس من جانبه مسيطر عليه جنسيا من قبل زوجته، ونتيجة لهذا عد ناقص الرجولة في نظر معاصريه.

ونشب خلاف حاد بين الزوجين سنة ١١٤٩، أثناء الحملة الصليبية الثانية عندما اتهمت اليانور بعلاقة زنا مع عمها ريموند أمير أنطاكية، وبعد عودتهما، حقق البابا مصالحة رائعة بينهما، ففي رحلة العودة فرش لهما البابا يوجين الثالث فراشاً أعده بنفسه وزينه بزينة ثمينة جداً، لكن

تبرهن أن هذا بلا محصلات طويلة الأمد.

وحصلت اليانور على الطلاق من لويس، وقرر في ٢١ — آذار سنة ١١٥٢ أربعة من رؤساء الأساقفة الفرنسيين فصلهما على أساس وجود قرابة قريبة بين جديهما تحرم الزواج بينهما حسب شريعة الكنيسة، وهي حجة كانت رائجة استخدمت دوماً في حالات الزواج المخفق للوصول إلى الطلاق، ومن المؤكد أن اليانور كانت تعرف ما تريده، فما أن حصلت على الطلاق حتى بعثت برسلها إلى هنري كونت أنجو، وقد تزوج منها في ١٨ — أيار ١١٥٢.

وكانت العلاقات نشأت بينهما في آب من السنة المنصرمة عندما تقابلا في باريس، وكان هنري مثله مثل أبيه غيوفري بلانتغنت، حيث أنه تزوج من امرأة أكبر منه بعدة سنوات، ومثله أيضاً حصل من هذا الزواج على دوقية أكوتين التي كانت ميراث اليانور، وكان هنري قد صار دوقا لنورماندي سنة ١١٥٠، ثم كونت أنجو بعد وفاة أبيه سنة ١١٥١، والآن بضربة واحدة غدا أعظم قوة من مولاه الاقطاعي، الملك لويس.

وأثارت أخبار الزواج لويس ودفعته لشن الحرب ضد هنري، وقد انضم إليه غيوفري الأخ الأصغر لهنري، الذي أدرك أن زواج هنري من إليانور كان من معانيه أن هنري لن يتخلى له عن أنجو، كما هو مفترض منه تنفيذاً لوصية أبيهما، وفي انكلترا انضم إلى لويس الملك ستيفن مع ابنه يوستاس.

ولكن هنري نجح بالحرب بسهولة، وباشر سلطانه بقوة على جميع أراضيه الفرنسية، فهو الآن بات يمتلك كتلة واسعة امتدت في الشمال من نورماندي ومرت خلال أنجو إلى أكوتين في الجنوب، وفي الحقيقة حقق الزواج من اليانور نقطة تحول تاريخية عظمى، فهنا بدأ تاريخ أسرة بلانتغنت.

١٥— الخليلة الملكية، مسألة اجتماعية منبوذة:

عندما كان هنري الثاني في الأربعين من عمره اعترف للمرة الأولى بأن روزاموند Rosamund هي خليلته، وكانت في الثلاثينات من عمرها، وهي ابنة رجل نبيل اسمه وولتر كلففورد Clifford ولعلها كانت المرأة الوحيدة التي أحبها هنري في حياته، وقد عاشت في القصر الملكي في وودستوك في أكسفورد شاير، الذي أعاد الملك تأسيسه خصيصاً لها، وذلك قبل وفاتها في سنة ١١٧٦، بسنتين أو ثلاثة، وقد عد المؤرخون وفاتها على أنه جزاء استحقته لاقترافها الزنا.

ودفنها الملك الحزين في قبر فخم جداً أقيم أمام المذبح العالي في دير راهبات غودستو Godstow ، وقدم فيما بعد هو ووالدها هبات كبيرة للدير من أجل ذكراها، لكن في سنة ١١٩١، بعد وفاة هنري، ارتعب القديس هيوج أسقف لنكولن حين وجد قبر زانية داخل الكنيسة، وقد زين بشكل رائع جداً، ولكي يضع حداً لهذا الاثم العظيم أمر بازالة المزار الذي حوى القبر، وبذلك باتت روزا موند خارج الكنيسة.

وبعد قرن من وفاتها شرع المؤرخون يحيكون بعض الحكايات حولها، فهي قد أخفيت في مخدع سري لايمكن الوصول إليه داخل وودستوك لحمايتها من اليانور صاحبة أكوتين ومن غيرتها، غير أن الملكة عثرت عليها وجعلتها تنزف داخل حمام حامية حتى ماتت، وقيل في قرون تالية بأن اليانور استخدمت سكيناً وكأساً مسموماً، وأنها عرفت طريقها ضمن المتاهة باستخدام خيط حريري حتى وصلت إلى مخدعها السري.

ولندع الحكايات الأسطورية جانباً، تبين قصة روزاموند وهنري الثاني بوضوح المصاعب التي توجب على النساء مواجهتها عندما كن يضعن أنفسهن خارج المجتمع، مجتمع كانت توجهاته بيد الرجال فهم الذين تحكموا به، ومع أن أبناء الزنا من الاسرة المالكة مثل غيوفري بلانتغنت،

ووليم صاحب السيف الطويل، وهما من أولاد هنري الثاني من خلال اتصالات قديمة، قد نالوا الاعتراف والتشريف، نظر إلى أمهاتهم نظرة سوء وعوملن بازدراء واستهجان لأنهن خرقن شريعة الكنيسة وقوانين المجتمع، وأكثر من هذا نجد حتى النساء المحظوظات وذوات المكانة المحترمة مثل ميليساند المقدسية، والامبراطورة ماتيلدا، واليانور الأكوتانية، استخدمن من قبل آبائهن كأدوات سياسية، وفقط ذوي العزم الشديد منهن هن اللائي استطعن احداث تأثير شخصي على السياسات الرفيعة للقرن الثاني عشر.

١٦-رئيس أساقفة ضد ملك:

مع أن الكثير كتب حول رئيس الأساقفة توماس بكت صاحب كانتر بري، وتجاوز هذا ماكتب حول سواه من شخصيات عصر أسرة بلانتغنت في انكلترا،مع هذا كله تبقى الخلافات حادة حول شخصيته،فقد كانت كذلك بين معاصريه، وماتزال على هذه الحالة منذ ذلك الحين،فهو قد ولد في لندن سنة ١١١٨ من أسرة تجار نورماندیين،وتعلم في دير ميرتون ثم التحق بحاشية ثيوبولدرئيس أساقفة كانتربري،حيث هيأت له مواهبه الادارية السبيل لترقيات سريعة، وعين في سنة ١١٥٤ رئيس شمامسة في كانتربري، وفي أواخر تلك السنة عينه هنري الثاني بناء على توصية رئيس الأساقفة ثيوبولد مستشاراً له لجميع انكلترا،واستغرق بكت نفسه ووقته في السنوات الثمانية التالية كلية في مسائل الدولة،وحظي بثقة الملك الكاملة، ولم يكن ذلك أبداً بسبب تأييده لهنري في صراعاته مع الكنيسة،واخلاص بكت هذاجعله المرشح المثالي لهنري الثاني لرئاسة أساقفة كانتربري بعد وفاة ثيوبولد في سنة ١١٦١،ولهذا فوجىء الملك وغضب، وعندما أقدم بكت،وهو خادمه الموثوق،على الاستقالة من المستشارية فور انتخابه لرئاسة الأساقفة،ومن ثم غدا أكثر خصومه إزعاباً

وأفضل شرح للتغير الهائل الذي ألم ببكت،ثم للخلاف الذي نشب إثرذلك،هو أن رئيس الأساقفة حول ولاءه من هنري الثاني الى مولى أعظم،هو الرب، فهذا ماعبرعنه بكت في مناقشة حامية جرت بينه وبين الملك في سنة ١١٦٣، حيث قال له:«في يوم الحساب المخيف سنحاكم معاً كعبيد لرب واحد ،وصحيح أن المولى المؤقت تنبغي طاعته،لكن ليس ضد الرب» ، وكان الجواب الوحيد الذي وجده هنري الثاني أمام هذه المناقشة الحادة هو التهديد باستخدام القوة الجسدية،وهو سلاح كان من غير المعقول استخدامه ضد أعظم الشخصيات الدينية مكانة في بلاده.

وتفجر الصراع بين الملك وبين رئيس الأساقفة،وكان القتال بينهما حول المسؤولية القضائية،لاسيما وأن هنري الثاني كان قد عقد العزم على الحد من سلطة المحاكم الكنسية،فقد اعتقد أن نشاطات هذه المحاكم قد بدأت تلغم السلطات القانونية التي ورثها من الملوك الانكليزالمتقدمين،ففي وستمنستر اقترح هنري الثاني في تشرين الأول لعام ١١٦٣ أن الكتاب (أي الناس في الطرق الكهنوتية،ولهذا هم بطبيعة الحال مرتبطين بالكنيسة)إذا ماوجدوا مجرمين في جرائم عدوانية ينبغي تسليمهم الى السلطات المدنية لانزال العقوبة بهم، وبعد ضغوط جاءت من الملك، وبعد تبدلات عديدة بالرأي،رفض بكت أخيراً الموافقة على هذا الطلب،وعلى مطالب أخرى قدمها هنري مكتوبة في اجتماع عقد في كلارندونClarendonفي كانون الثاني سنة١١٦٤.

وازداد منذالآن اهتمام الملك بمسألة خضوع رئيس الأساقفة، وبعد اجتماع آخر لمجلس البارونات والأساقفة عقد في نور ثأمبتون في الخريف جرت خلاله مواجهات عاصفة نجا بكت بنفسه الى فرنسا،حيث التمس حماية البابا الاسكندر الثالث،الذي كان هو نفسه يعيش وقتها في المنفى في البلدة الكاتدرائية لسنس، ومكث رئيس الأساقفة السنوات التالية

في الدير السسترشيستي في بوتني،ومن هناك أثار حرب كلمات ضد ملكه وضد مستشاريه.وكان موقف غالبية المثقفين من رجال الكنيسة في أوربا الغربية أن بكت كان محقاً في صراعاته مع الملك ،وعلى كل حال كانت نشاطات الكنيسة والدولة من غير الممكن فصلهما لتداخلهما في ظل حكم أسرة بلانتغنت لانكلترا،وكان الأساقفة الانكليز مجموعة قوية،لكنهم دانو بتعيينهم للحظوة الملكية،وكانوا متورطين بشكل كبير في الأعمال الادارية والقضائية لصالح التاج، ولهذا كانت لهم مصالح كبيرة في الاحتفاظ كوسطاء رئيسيين فيما بين الكنيسة والملك،وكانوا مكرهين على رؤية المواقف العدوانية لبكت ضد الملك.

وعلى هذا توفر القليل من التعاطف نحو رئيس الأساقفة الذي أوصل معارضته للملك الى الحد الأقصى،وبالتدريج أرغم بكت على ادراك أن منفاه التطوعي كان له تأثير لايذكر على سير الأمور في انكلترا،وتبعاً لما قاله الأسقف غلبرت فوليوتFoliotأوف لندن،الذي عرف بكت بشكل جيد:«لقد كان دوماً أحمقاً ،وسيبقى أبداً كذلك»وهذا الحكم على رئيس الأساقفة المنفي لم يكن عادلاً أبداً، ومهما يكن الحال كان قوله ملاحظة صحيحة حول كيف عرض بكت بشجاعة مسألة الصراع بين القوتين الدينيةوالدنيوية،دون أن يستطيع ايجاد حل لذلك،إلاّبموته.

١٧-حلف ابنة:

بدأت المباحثات من أجل زواج ماتيلدا كبرى بنات هنري الثاني من هنري الأسد،دوق بافارياوسكسوني، في سنة ١١٦٥،عندما قاد رينالد رئيس أساقفة كولون-الذي كان المستشار القريب للامبراطورفردريك بربروسا-بعثة جاءت الى هنري الثاني وهو في روان،وكان الاقتراح أن تتزوج واحدة من بنات الملك من الابن الأصغر لفردريك،بينما تتزوج ماتيلدا من الدوق،الذي كان أعظم رعايا الملك قوة في تلك المرحلة،وحليف قريب له،وكان فردريك الذي امتد سلطانه بشكل

نظري خلال ألمانيا وشمالي ايطاليا،بحاجة للتأييد في صراعاته مع البابوية،ومع المدن في شمالي ايطاليا،وكان للتو قد أقام بابا مضاد ومعاد للبابا الاسكندر الثالث،وكان هنري الثاني متضايقاً من خلافه مع توماس بكت،الذي ذهب الى المنفى في نهاية عام ١١٦٤،والتمس من البابا المساعدة، ولهذا رأى هنري بصداقته مع الامبراطورية وسيلة ضغط على البابا الاسكندر من أجل التأثير عليه ضد بكت.

لكن بما أن هنري الثاني كان قد أغضب بربروسا،عندما رفض أخيراً نقل ولائه الى البابا المضادفكتور الرابع،فالذي تم فقط هو الزواج فيما بين ماتيلدا والدوق هنري،وجرت الاحتفالات في شباط سنة ١١٦٨، في برونسوكBreenswick ،وكان هنري في الثلاثينات من عمره،وقد تزوج من قبل، ولم ينجب الزواج وريثاً ذكراً ،ومن ثم تم حله على أساس قاعدة القرابة المعروفة،وكانت ماتيلدا التي ولدت في سنة ١١٥٦،إما في الحادية عشرة من عمرها أو في الثانية عشرة،عندما تزوجت،وأنجبت لزوجها ولدين ذكرين،والى تاريخ وفاتها في سنة ١١٨٩،أدارت ممتلكات زوجها الواسعة أثناء غيابه في حجه الى الأراضي المقدسة في ١١٧٢-١١٧٣.

وكانت النتائج السياسية للزواج غير متوقعة كلياً،حيث ورطت هنري الثاني وأولاده بعمق في السياسات الألمانية،فقد تخاصم الدوق هنري مع الامبراطور فردريك في أواخر السبعينات من القرن الثاني عشر، وفي خريف سنة ١١٨٢ وصل هنري وأسرته الى بلاط هنري،منفيين،وحاول الملك الختن أن يضمن عودة صهره الى سكسوني من خلال الضغوط السياسية على فردريك،وأصبح الولدان،لاسيما أوتو وهو الثاني بينهما،تحت حماية أسرة بلانتغنت،وقد بقيا في بلاطها عندما عاد هنري وماتيلدا الى ألمانيا سنة ١١٨٥.

١٨-الملكة السجينة السياسية:

كانت اليانور في السنين الأولى من زواجها من هنري الثاني نشطة منشغلة في الحياة السياسية لمتلكاتها،وقد سافرت كثيراً جداً ،ومارست كثيراً المسؤوليات الادارية،وظلت حتى سنة ١١٦١ تقريباً النائبة للملك في انكلترا أثناء غيابات هنري، ويمكن القول أنها منذ هذه الآونة تصاعد رفضها لهنري،ومع أن هنري أعطاها حرية كاملة للاشراف على دوقية أكوتين ١١٦٨،لعله فعل ذلك لتتركه يتابع مغامراته السياسية الخاصة والنسائية بدون عوائق مع أمور أخرى، ولم يتوقف نشاط اليانور التآمري ضده، وبعد سنة عندما تمت تسمية رتشارد ولياً لعهدها على الدوقية ،غدا رتشارد رفيقها الدائم وتابعها في التآمر ضد أبيه، وأعطى تتويج هنري الشاب ملكاً لانكلترا في سنة ١١٧٠،اليانور فرصة نافعة لتحقيق خططها ضد زوجها، ووصل عملها التآمري في سنة ١١٧٣ الى درجة الإثمار،وذلك عندما ثار أولادها: الملك الشاب،ورتشارد وغيوفري ضد أبيهم وهربوا الى عند لويس السابع، وألقي القبض على اليانور عندما حاولت اللحاق بهم وهي متخفية على شكل رجل، وقد سجنت من قبل زوجها الغاضب وعرف هنري أنه سيقترف خطيئة سياسية كبيرة إذا ماطلق اليانور،كما أنه لم يكن قادراً على إرغامها على أن تصبح راهبة في دير فونتغرولت،وادراكاً منه لما مثلته من خطر على الاستقرار في بلاده،أبقاها في سجن مضيق عليها،وأوكل الاشراف على ذلك السجن الى أكثر رجاله ثقة،وقد تحملت هذه المعاملة بصبر وشجاعة،وسمح لها مع مستشاريها الروحيين بالترحال الى مسافات قصيرة،فيما بين ونكستر وسالسبري ولدغرشال Ludgershall ومساكن ملكية أخرى في جنوبي انكلترا.

وبعد وفاة الملك الشاب في سنة ١١٨٣،أطلق سراحها لوقت قصير كي تذهب الى أكوتين لتتصدى لادعاء فرنسي بالدوقية ،وسمح لها في السنة التالية بالقدوم الى البلاط لرؤية ابنتها ماتيلدا المنفية من سكسوني

مع زوجها هنري الأسد،ثم ذهبت سنة ١١٨٥ في ظل الحراسة الى نورماندي لتتسلم أكوتين من رتشارد،الذي اقتنع بالتخلي عن دوقيته المحبوبة،تحت تهديد والده أن اليانور سوف تعيث فساداً في المنطقة مع جيش بصحبتها .

ومن جديد بدأت اليانور في السنوات الثلاث الأخيرة من حياة هنري بالتآمر ضده،ومنحها موته في ١١٨٩ الحرية وسمح لها بممارسة السلطة بشكل أعظم مما تمتعت به من قبل.

١٩-قضية قتل:

كان الفصل النهائي في الصراع الذي استمر ست سنوات فيما بين هنري الثاني وتوماس بكت حاسماً لأن صراع الإرادة نفسه استمر طويلاً دون نتيجة،وأمكن في سنة ١١٧٠ الوصول الى تسوية بين الملك ورئيس الأساقفة،بموجبها بات بإمكان بكت العودة الى انكلترا،كما أن ممتلكات رئاسة الأسقفية المصادرة سوف تعاد،ولسوف يعيد بكت تتويج الملك الشاب، ومامن شيء قيل حول الاجتماع الذي جرى في كليروندون،وفي ١-كانون الأول سنة ١١٧٠،عاد بناء عليه رئيس الأساقفة الى انكلترا بعد سني نفيه،ثم مالبث أن قام بحركة عدوانية وغير تصالحية فحرم رئيس أساقفة يورك مع اثنين من الأساقفة كانا قد ساعداه لدى تتويجه للملك هنري،وعندما وصلت هذه الأخبار الى هنري في نورماندي اشتعل غضباً، فما كان من أربعة من فرسانه إلا أن سافروا الى كانتري بري ليتولوا تنفيذ انتقام رهيب من الصعب جداً أن نصدق أن الملك كان بلادور فيه.

وفي عشية ٢٩-كانون الأول كان رئيس الأساقفة قد اغتيل في كاتدرائيته،،وبذلك ثار السخط وعم جميع أرجاء أوربا.

وبات بكت الميت أقوى بلا حدود من بكت الحي، وفي خلال عدة

أشهر تلت وفاته حكي عن عدة أعمال إعجازية حدثت عند ضريحه، وخلال أقل من ثلاث سنوات مضت على مقتله جرى تطويبه قديساً من قبل البابا الاسكندر الثالث،وكان ذلك في شباط سنة ١١٧٣.

وفي السنة التالية أعلن الملك أمام الناس عن توبته أمام مزار عدوه القديم،وغدا هذا المزار بسرعة ثم بقي واحداً من المزارات الرئيسية لمسيحية العصور الوسطى،ومقصداً للحجاج،ولم يكن توماس بكت بطبيعته قديساً،لكنه عدّ شهيداً،وعلى هذا الأساس أصبح أعظم الشهداء تأثيراً في تاريخ الكنيسة الانكليزية.

٢٠-فراخ النسر:

تبعاً لماروواه جيرالدأوف ويلز،ترك هنري الثاني مساحة صورة بيضاء في مخدعه المصور بشكل رائع في قلعة ونكستر،وفي سنوات الملك الأخيرة جرى الرسم فوق المساحة وفق ماصممه الملك شخصياً،وحوت الصورة شكل نسر له أربعة فراخ،وكان هناك أنثى نسر واحدة جلست على ظهر النسر،وكان هناك نسرين على جناحيه يمزقان جسده،ووقف النسر الرابع فوق رأسه ينتظر ليقوم باقتلاع عينيه،وقال هنري إن الصورة مثلته مع أولاده الذين لم يتوقفوا عن تعذيبه حتى مات،وقال بأن الصغير بينهم ، وهو الأثير لديه سوف يؤذيه بوحشية أكثر من البقية.

ولد أكبر أولاد هنري من إليانور الذين عاشوا،سنة ١١٥٥،وهو هنري الملك الشاب،وكان الثاني هورتشارد،وقد ولد سنة ١١٥٧،أماالثالث فهو غيوفري وقد ولد سنة ١١٥٨،وكان الأخيرهو جون وقد ولد سنة ١١٦٧،وقد حذا هنري حذو سواه من أمراء فرنساالكبار،الذين غالباً ماقسموا أراضيهم بين أبنائهم وهكذا تسلم الولد الأكبر الممتلكات التي عادت الى الأب،وتسلم الأولادالأصغر بعض الممتلكات وبناء عليه توقع الأولاد الأربعة تسلم بعض الحصص من ممتلكات أبيهم الواسعة لكن غير المريحة، وفي سنة ١١٦٩ قام هنري ببعض الترتيبات في هذا المنحى

فنال الملك الشاب نورماندي وانكلترا وأنجو،وتقرر أن يأخذ رتشارد دوقية أكوتين مع أراضي أمه،وأن يأخذ غيوفري بريتاني ،لكن بمثابة تابع للملك الشاب،الذي توج ملكاً لانكلترا سنة ١١٧٠،وحرم جون من تملك أية أراض،ولهذا نال لقب «بلا أرض».

وكان هنري الملك الشاب عابثاً وكسولاً ،وشاباً يحب الحرب،لذلك ثار ضد أبيه لأنه لم يسمح له بممارسة سلطانه والتصرف بأراضيه،وكان ميراث جون أبعد صلة وصل مع العائلة فقد أراد هنري الثاني أن ينال ابنه الأصغر الحصون الأنجيفية في شينون ولاندون،وميربو،لكن الملك الشاب عارض هذه الخطة،وبمساعدة من اليانور جرى تدبير مؤامرة ضد هنري الثاني أسهم فيها لويس السابع ملك فرنسا الذي إليه فرالأخوة الثلاثة الكبار ،واستهلك هنري الثاني جميع براعاته السياسية، والدبلوماسية والعسكرية حتى استطاع هزيمة هذا التحالف الخطر في سنة ١١٧٤.

٢١-مذبحة اليهود:

في السنوات التي أعقبت استيلاء النورمان على انكلترا،شجع الملوك الانكليز اليهود على عبور القنال من نورماندي الى لندن،ومع منتصف القرن الثاني عشر كان هناك مجموعات صغيرة انتشرت في مدن البلاد،عملت على اقراض الأموال الى جيرانهم المسيحيين،وأثارت اعدادات رتشارد للحملة الصليبية الثالثة ضد المسلمين العداوة الشعبية الواسعة نحو اليهود،الذين مثلوا أهم مجموعة دينية وعرقية متميزة كأقلية في انكلترا، وبدأت أعمال العنف والصخب ضد اليهود مع أعمال تتويج رتشارد في وستمنستر يوم ٣-ايلول سنة ١١٨٩،وامتدت أعمال العنف هذه الى جميع أرجاء البلاد،وتجلت على شكل هجمات،أو سلسلة حملات ضد مناطق اليهود في المناطق الريفية ودامت خلال الشتاء والربيع،ووصلت الذروة في المذبحة المشهورة،وأعمال الانتحار الجماعية لحوالي/ ١٥٠/ يهودي

داخل القلعة الملكية في يورك يوم سبت الآغادولGODOL ليلة ١٦ آذار سنة ١١٩٠، واتخذ رتشارد نفسه خطوات مباشرة لتجنب تكرار مثل هذا الصخب وأعمال عنف الرعاع.

وفى العقد الأخير من القرن الثاني تحول اليهود الانكليز الذين كانوا يقرصون الأموال ويتمتعون بالحماية الملكية ،الى أقنان للخزينة الملكية، وبذلك انتظموا أكثر من ذي قبل،وجاء هذ الإجراء لضمان خضوعهم للضرائب الملكية الثقيلة،ويبدو أن الملك جون كان يزدريهم،لكنه أصر،أنهم ماداموا مصدراً نافعاً للمال،ينبغي حمايتهم، وقال:«إذا ما أعطيت السلم حتى إلى كلب ينبغي حماية هذا السلم وعدم خرقه»،وفرض جون عرامات قاسية جداً على اليهود،مماسبب هرب كثير منهم من انكلترا للنجاة من جشعه،وفي سنة ١٢٩١جرى سحب الحماية الملكية المتقلبة بشكل كامل من قبل ادواردالأول،وطرد اليهود من انكلترا حيث مكثوا خارجها طوال بقية العصور الوسطى،لابل أكثر من ذلك.

٢٢-فيليب أغسطس:

عندما التقى رتشارد وفيليب الثاني ملك فرنسا في فيزلي،كان الملك الفرنسي الأدنى كثيرا والأقل في اعطاء انطباع العظمة بين الرجلين،فقد كان قصيراً،وبدينا،ونادراً ماكان بصحة جيدة،وقد فقد شعره أثناء الحملة الصليبية الثالثة،زد على هذا كان يميل لأن يكون مرائيا،وفي القتال كان النظير الأسوأ للملك الانكليزي،غالباً ماأرغم على الفرار،وقد خسر آلات قذفه في فيرنول، وقطار عرباته في فرتفال،وسقط في الماء في غيسور،حتى في نصره العظيم ضد جون وحلفائه في بوفين سنة ١٢١٤،كان قد جرد من حصانه.

ومع هذا كله،لئن لم يكن فيليب قد بني ليكون بطلاً محارباً،كان حاكماً قادراً،وعندما كان شاباً،وجد يحلم تحت شجرة ويتساءل هل

سيكون عظيماً مثل شارلمان،ووصفه المؤرخ الفرنسي فوتيير:«إنه كان أعظم ملوك أسرة كابيه»وفي الوقت نفسه قال المؤرخون :«لقد وسع الى درجة كبيرة حقوق وسلطة مملكة فرنسا، وأغنى الخزانة الملكية»،فلقد ضاعف ممتلكات الملكية أربع مرات،وهزم أوتو الرابع امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة،الذي كان حليفاً لجون،في بوفين Bou-vines ،وسبب انهيار الدويلات البلانتغنتيه في القارة،وحكمت فرنسا بشكل فعال من قبل موظفين محليين،وغدت باريس عاصمة عظيمة،

وكان فيليب قد تزوج ثلاث مرات، وقد وجد زوجته الثانية وهي دانماركية اسمها إينبورغIngeborg غير مرضية بعد ليلة واحدة من الزواج، وأدى انفصاله عنها ثم، ما أعقب ذلك من ارتباطه مع أغنس أوف ميران الى عداء كبير وخصام مع البابوية ثم الى حرمانه كنسيا، وفي سنة ١٢١٣ بعد ولادة حفيده،أعاد إينبورغ زوجة له للمرة الثانية.

٢٣-الذراع الطويلة للملكية:

كان نجاح الحملة الصليبية الثالثة من ١١٨٩ الى ١١٩٢ محدوداً،وتبرهن أنه من غير الممكن استرداد القدس،

لكن صلاح الدين أجبر على عدم التوسع،وتمكنت المملكة الصليبية التي بدت في عام ١١٨٧ على حافة الزوال،من اعادة التأسيس على الشريط الساحلي،وتمكنت من العيش بعد ذلك لقرن من الزمان،زد على هذا استولى رتشارد على جزيرة قبرص الاستراتيجية في سنة ١١٩١،أثناء قدومه الى الأراضي المقدسة،فصارت قاعدة ساحلية للامداد.

وعادت معظم نجاحات الحملة الى رتشارد،الذي كانت قد عادلت قدراته التنظيمية والسياسية براعاته العسكرية المعروفة، وكانت الترتيبات التي أعدها للحكم في الممتلكات البلانتغنتية أثناء غيابه عملية ناجعة ،وكانت رعيته معتادة على غياب الحكام،لأن والده هنري أمضى مدة وجيزة في

كل واحدة من مقاطعاته،وفي مناسبة رتشارد يرجح أن الصلات بينه وبين موظفيه بقيت عن طريق المراسلات،ومع هذا كان بامكان الملك التجاوب مع أي قضية أو حادثة بعد مالايقل عن شهرين على وقوعها.

وكان قد عين في انكلترا، ونورماندي،وأنجو،وبواتو،وغسكوني رجالاً مخلصين له وأصحاب خبرة،وقد مثلوه بشكل جيد ،ومن أجل حماية دوقية أكوتين المضطربة تزوج من بيرنغاريا، وبذلك ضمن مساندة أبيها سانشو السادس صاحب نافار ليقف ضد الكونت ريموند صاحب طولوز،وكانت اليانور مع المسؤولين الآخرين متحفزين لحماية السلطات الملكية .

وكانت الترتيبات التي أعدها ناجحة بشكل عام ،على الرغم من بعض المصاعب التي كان من غير الممكن تجنبها في عصر كان غياب الملك أو مرضه يمكن أن يفرض مشاكل حادة جداً ،وجاء التهديد الأساسي من أعداء رتشارد وهم:فيليب الثاني ملك فرنسا،وريموند صاحب طولوز،وطبعاً من أخيه جون أثناء السنة التي تقدمت على عودته، ولو أنه عاد الى انكلترا،عندما كان متوقعاً، ولم يمض سنة في السجن الألماني،لتبرهن أن ترتيباته لحكم بلاده أثناء غيابه مع الحملة الصليبية،كانت ناجحة الى أبعد الحدود.

٢٤-الملكة البديلة:

في ١٢-أيار عام ١١٩١ تزوج رتشارد قلب الأسد من بيرنغاريا ابنة سانشو السادس صاحب نافار ،وقد جرى تتويجها ملكة على انكلترا ،والمعلومات المعروفة حولها قليلة، لكن هناك اتفاق على أنها كانت حكيمة أكثر من كونها جميلة،وأن الزواج أعدّ لأسباب سياسية،وكان لدى رتشارد ثلاثة دوافع لاختياره بيرنغاريا:لقد كانت بديلة لخطيبته أليس الفرنسية التي رفضها في سنة ١١٩٠،وليتحالف مع نافار،وليحصل على ولد ذكر، ولم

يفلح فقط في النقطة الأخيرة .

وحملت اليانور أم رتشارد بيرنغاريا اليه عندما كان في طريقه الى الأراضي المقدسة ،وتركتها معه في صقلية في شباط ١١٩١، وكان ذلك قبل أن يحلل فيليب الثاني رتشارد ويحرره من تعهده الذي كان عمره آنذاك عشرين سنة، بالزواج من أليس،وكان الموسم آنذاك هو أيام الصيام،حيث من غير الممكن تنفيذ الزواج، وقرر رتشارد الابحار نحو الأراضي المقدسة،لكن السفينة التي كانت تحمل بيرنغاريا انفصلت عن بقية سفن الاسطول أثناء عاصفة من العواصف، وقد تمكنت من اللجوءالى مكان قرب ليماسول في قبرص ودفعت المحنة التي تعرضت بيرنغاريا إليها لتعرضها لتهديد اسحق كومنوس،حاكم الجزيرة،رتشارد الى محاربة كومنوس واحتلال قبرص، وتم عرس رتشارد وبيرنغاريا في ليماسول.

. وكان الزواج نجاحاًسياسياً ،فقدساعد سانشوالجريء، أخو بيرنغاريا في الدفاع عن أكوتين ضد الفرنسيين أثناء وجود رتشارد بالسجن، ومع ذلك لم يكن الزواج سعيداً،فقد أمضى رتشارد وقتاً قليلاً مع زوجته، ولم يرزقابالأولاد، ولم تسهم بيرنغاريا بدور سياسي كبير،وعاشت بعد وفاة رتشارد في لامانس حيث حظيت بالشهرة والاحترام لكرمها في تقديم المساعدات .

٢٥-متاهة السياسات الألمانية :

كان الامبراطور هنري السادس ،حاكم ألمانيا،عندما سجن رتشارد هناك ١١٩٣-١١٩٤،وكان فردريك بربروساً والد هنري، واحداً من أعظم أباطرة العصور الوسطى ، وقد مدّ اهتماماته الى ايطاليا،وزوج ابنه من كونستانس وريثة صقلية النورماندية،وكان هذا واحداً من أسباب الصراع فيما بين هنري السادس وبين رتشارد،فجوانا أخت رتشارد كانت

قد تزوجت من وليم الثاني، ملك صقلية، الذي توفي سنة ١١٨٩، ووقتها كان رتشارد في طريقه نحو الأراضي المقدسة،فساند تانكرد أوف ليسي Leccعلى خلافة وليم ضد هنري السادس.

وتوفر سبب آخر للعداوة في ألمانيا، تمثل بزواج هنري الأسد،دوق سكسوني وبافاريا،الذي كان خصماً لأسرة هنري،من أخت أخرى لرتشارد،هي ماتيلدا،وتمكن بربروسا مع أمراء آخرين من هزيمة الدوق،،لكن وضع هنري السادس كان بعيداً عن الضمان والأمن ،ففي الشمال الشرقي كانت هناك أسرة الولفيينWelf القوية،وكانت معادية وعلى خلاف حول الرابطة الأسقفية،وقد دخلت في صراع مع الأمراء في الشمال الشرقي كذلك كان هنري السادس بحاجة ماسة الى الفرصة التي تهيأت له بأسر رتشارد قلب الأسد ،

ومع أنه لم يكن من السهل اختيار طريق العودة للوطن،يبدو أن قرار رتشارد النهائي بالعودة عبر النمسا،التي يحكمها ليوبولد،عدوه القديم أثناء الحملة الصليبية الثالثة، اتخذ بلامبالاة،ووقع رتشارد بالأسر سنة ١١٩٢، وهو متظاهر بأنه خادم مطبخ يتولى تحريك سفود في حانة خارج فينا، وقد سلمه ليوبولد الى هنري السادس ،حيث سجن في ألمانيا في دورنستين ثم نقل الى تريفل،وأطلق سراحه في ١١٩٤ عندما دفع فدية كبيرة قدرها مائة ألف مارك(مع خمسين ألف اخرى ستتبعها، إلاّإذا أقنع هنري الأسد في إقامه سلام مع الامبراطور)،كما أنه وافق على الاعتراف بهنري [illegible] اقطاعياً على انكلترا.

وكان نصر هنري قصير العمر،ذلك أنه توفي بعد ثلاث سنوات في ١١٩٧،وانتقل حكم الامبراطورية الى حليف رتشارد:أوتو أوف برنسوك Brunswick،ابن هنري الأسد.

٢٦-فدية ملك:

أطلق سراح رتشارد من السجن الألماني مقابل فدية كبيرة جداً قدرها ٦٦,٠٠٠ جنيه جمعت من أراضيه،ويعود الفضل في هذا الى المستشار وليم لونغشامب،والى أمه إليانور، والى النظام الذي طوره رتشارد وأسلافه،والذي كان من الممكن أن يكون فعالاً بما فيه الكفاية حتى أثناء غياب الملك.

وعندما ذهب رتشارد في الحملة الصليبية سنة ١١٩٠،كان ملكاً عظيماً وثرياً ،ومع أنه أمضى عدة أشهر فقط في انكلترا،لقد أحسن استخدامهم،فقد ذكر أحد المؤرخين المعاصرين له أنه«عرض كل شيء لديه للبيع:الوظائف،اللوردية،والايرليه،والعمالة والقلاع،والبلدات والأراضي،وكل ماتوفر»وصرح رتشارد نفسه قائلاً : «سوف أبيع لندن نفسها إذا وجدت مشتري»حتى لونغشامب توجب عليه دفع ٣,٠٠٠ جنيه مقابل وظيفة المستشار، ونتيجة لهذا تمكن رتشارد من الضغط أكثر على المسلمين مما استطاع فيليب أن يفعل ،فقد كان لديه سفناً أكثر،وأدوات حصار ،ورجال،وأعطى أعطيات أنمن.

وحكمت أراضيه أثناء غيابه بشكل جيد من قبل وزراء مخلصين،وذلك على الرغم من المتاعب التي آثارها أخوه الطموح جون،ففي انكلترا أثقل وليم لونغشامب«كاهل الشعب وظلمه باستخراج مكوس ثقيلة»ليمول حملات مولاه، وبذلك جعل نفسه لايتمتع بالشعبية،وحاول جون استغلال هذا

وعلى الرغم من دفع رتشارد للفدية،بدون مساعدة لونغشامب البارعة،تمكن من جمع مايكفي من مال بين ١١٩٤و١١٩٩ لاسترداد مااستولى عليه فيليب في نورماندي،ولبناء قلعة شاتو غيلاردالرائعة،وليحفظ ممالكه سليمة.

٢٧-حصاد أسرة بلانتغنت:

كان رتشارد برأي معاصريه أثرى وأقوى وأشجع من الملك الفرنسي، وصحيح أن الملك الفرنسي كان أعلى مرتبة من رتشارد،لكن ممتلكات رتشارد كانت أوسع وأكثر خصباً،كان فيها عدد من البلدات المزدهرة والمراكز التجارية الناشطة بحكم وجود بحر الشمال،والقنال،وطرق الأطلسي مع مجاري ثلاثة أنهار عظيمة هي:السين واللوار،وغارون.

وصحيح أن موارد جون كانت نظرياً أعظم من موارد عدوه الفرنسي،لكنه كان أدنى كفاءة،فضلاً عن أنه ورث بلاداً أفقرتها المكوس التي فرضها رتشارد وحصلها وأنفقها ،ومع الأيام صار فيليب أعظم ثروة،لكن جون عجز عن الضغط على الفرنسيين وجعلهم ينفقون ماتوفر لديهم من مال ،وهو قد طلب دوما جمع المال ،لكنه لم ينفقه في مقاصد نافعة كما فعل رتشارد.

٢٨-الزواج من ايزابيلا:

تزوج جون لمدة عشر سنوات من ابنة عمه ايزابيلا أوف غلو ستر،عندما وصل الى العرش في سنة ١١٩٩،وكان مخطوباً لها منذ أن كان في العاشرة، ولم ينجبا أولاداً مع أن جميع أولاد جون من خليلاته ولدوا أثناء زواجهما،ولم يتوجها جون ملكة معه، ووافقه وهو ملك أن يكون حراً لعقد زواج آخر لأسباب سياسية،وكان زواجه من ايزابيلا قد واجه معارضة كبيرة من الكنيسة بسبب القرابة بينهما ،لهذا لم يجد الآن صعوبة في الحصول على الطلاق منها.

وفي سنة ١٢٠٠،أثناء زيارة له لأكوتين،تزوج بشكل غير متوقع من روجة جديدة ،اسمها ايزابيلا أيضاً،وراجت أقاويل أنه أسكرها وضاجعها،ولاشك أن هذا يوضح سبب السرعة،وقد كانت في حوالي الثانية عشر من عمرها، وهي ابنة أودمار Audemar، كونت أوف أنغوليم، الذي كان من أعلى نبلاء الدوقية مكانة، وكان من قبل قد

سبب بعض المشاكل بتقديمه الولاء لفيليب الثاني ملك فرنسا،كطريقة لتأكيد استقلاله عن الملك رتشارد، وقد قيل الكثير حول هذا الزواج،فهو قد ضمن ولاء الكونت مع المكانة الاستراتيجية لممتلكاته،وكانت ايزابيلا مخطوبة من قبل لهيوج البني صاحب لوزغنان المجاورة ،وكان صليبياًشجاعاً ،من أسرة متعبة وناجحة،وكان صديقاً لرتشارد، وعلى خلاف مع أبي ايزابيلا حول كونتيه لامارشي،ولم يكتف جون بأخذ خطيبة هيوج،بل اغتصب في سنة ١٢٠١ كونتيته وأعطاها الى أودمار ختنه الجديد،ولكي يزيد الأمور سوءاً استولى على الأراضي النورماندية التي كانت بحوذة الف أخي هيوج الأصغر.

والتمس الأخوان اللوزغنانيان المساعدة القضائية من فيليب الثاني ملك فرنسا واستدعى فيليب جون للحضور أمام محكمة البلاط الملكي الفرنسي، ولم يحضر جون، وكان هذا مسوغاً لأن يعلن فيليب عن مصادرة جميع اقطاعيات جون الفرنسية في نيسان سنة ١٢٠٢(تقبل فيليب فيما بعد ولاء وتبعية آرثر تجاه جميع هذه الاقطاعيات ،ورتب الأمور لكونت بريتاني الشاب ليتزوج من ابنته ماري) وأعطى هذا القرار القضائي الصبغة الشرعية لأعمال الاستيلاء التالية التي قام بها فيليب ،لقد حمل آرثر مع الآخرين من أسرة لوزغنان السلاح ضد جون و،في المتن المزيد من التفاصيل حول ماحدث .

obeikandl.com

جريدة المصادر والمراجع

obeikandl.com

Bibliography

This is not intended as a comprehensive bibliography of all relevant works, but is a selection of books relating to the topics discussed in the notes and the chronicles. Articles have not been included because they are more difficult for the general reader to obtain, most of the works cited here contain bibliographies which are a good starting point for more detailed reading on individual subjects.

Politics, Law and Finance

Appleby, J. T., *England without Richard*, London, 1965

Appleby, J. T., *Henry II, the Vanquished King*, London, 1962

Baker, J. H., *An Introduction to English Legal History*, 2nd edn., London, 1979

Barber, R., *Henry Plantagenet, a Biography*, London, 1964

Barlow, F., *The Feudal Kingdom of England, 1042–1216*, 3rd edn., London, 1972

Barraclough, G., ed. and trans., *Medieval Germany, 911–1250*, 2 vols., Oxford, 1938

Barrow, G. W. S., *Feudal Britain: The Completion of the Medieval Kingdoms, 1066–1314*, London, 1956

Barrow, G. W. S., *The Kingdom of the Scots: government, church and society from the eleventh to the fourteenth century*, London, 1973

Barrow, G. W. S., *Kingship and Unity: Scotland 1000–1306*, London, 1981

Bates, D., *Normandy before 1066*, London, 1982

Bautier, R. H., ed., *La France de Philippe Auguste: le temps des mutations*, Paris, 1982

Brékilien, Y., *Histoire de la Bretagne*, Paris, 1979

Brooke, C. N. L., *Europe in the Central Middle Ages, 962–1154*, London, 1964

Brooke, C. N. L., *From Alfred to Henry III, 871–1272*, London, 1961

Brooke, Z. N., *A History of Europe, 911–1198*, London, 1938

Brooks, F. W., *The English Naval Forces, 1199–1272*, London, 1933

Brown, R. A., *The Normans and the Norman Conquest*, London, 1969

Brundage, J., *Richard Lion Heart*, New York, 1973

Boussard, J., *Le gouvernement d'Henri II Plantagenêt*, Paris, 1956

Boussard, J., *Le comté d'Anjou sous Henri Plantagenêt et ses fils, 1151–1204*, Paris, 1938

Bur, M., *La formation du comté de Champagne, v 950–v.1150*, Nancy, 1977

Cartellieri, A., *Philipp August König von Frankreich*, 4 vols, Leipzig, 1899–1922

Chartrou, J., *L'Anjou de 1109 à 1151*, Paris, 1928

Chrimes, S. B., *An Introduction to the Administrative History of Medieval England*, 2nd edn., Oxford, 1959

Clanchy, M. T., *England and its Rulers, 1066–1272*, London, 1983

Clanchy, M. T., *From Memory to Written Record, England, 1066–1307*, London, 1979

Cox, J. C., *The Royal Forests of Medieval England*, London, 1905

Cronne, H. A., *The Reign of Stephen, Anarchy in England, 1135–54*, London, 1970

Davis, R. H C., *A History of Medieval Europe from Constantine to Saint Louis*, London, 1957

Davis, R H C, *King Stephen*, London, 1977

Davis, R. H C, *The Normans and their Myth*, London, 1976

Duby, G., *Le dimanche de Bouvines*, Paris, 1973

Duggan, A., *Devil's Brood The Angevin Family*, London, 1957

Dunbabin, J., *France in the Making, 843–1100*, Oxford, 1985

Duncan, A A M, *Scotland. the Making of the Nation*, Edinburgh, 1975

Eyton, R W., *The Court, Household and Itinerary of Henry II*, London, 1878

Fawtier, R, *The Capetian Kings of France, Monarchy and Nation, 987–1328*, trans Butler, L, and Adam, R J, London, 1966

Galbraith, V H, *Studies in the Public Records*, London, 1948

Gillingham, J, *The Angevin Empire*, London, 1984

Gillingham, J, *Richard the Lionheart*, London, 1978

Gillingham, J, and Holt, J C, eds., *War and Government in the Middle Ages*, Woodbridge, 1984.

Gonzalez, J, *El Reino de Castilla en la epoca de Alfonso VIII*, Madrid, 1960

Guillot, O., *Le comte d'Anjou et son entourage au XI^e siècle*, 2 vols, Paris, 1972

Hall, H, *Court Life under the Plantagenets*, London, 1890

Hallam, E. M, *Capetian France, 987–1328*, London, 1980

Hallam, E M., *Domesday Book through Nine Centuries*, London, 1986

Halphen, L., *Le comté d'Anjou au XI^e siècle*, Paris, 1906

Harding, A., *The Law Courts of Medieval England*, London, 1973

Hardy, T. D, *The Itinerary of John, King of England*, London, 1829

Harvey, J. H, *The Plantagenets*, London, 1948

Haskins, C. H, *Norman Institutions*, Cambridge, Mass, 1918

Heer, F, *The Holy Roman Empire*, trans Sondheimer, J, London, 1968

Hodgson, C E, *Jung Heinrich, Konig von England, Sohn Käing Heinrichs II, 1155–83*, Jena, 1906

Holdsworth, W, *A History of English Law*, 7th edn, London, 1956

Holt, J C, *King John*, London, 1963

Holt, J C, *Magna Carta*, Cambridge, 1965

Holt, J C., *The Northerners*, Oxford, 1961

Hoyt, R S, *The Royal Demesne in English Constitutional History, 1066–1272*, New York, 1950

Joliffe, J E A, *Angevin Kingship*, 2nd ed, London, 1963

Kibler, W. W., ed, *Eleanor of Aquitaine, Patron and Politician*, Austin, 1977

Knowles, M D, *The Historian and Character and Other Essays*, Cambridge, 1963

Landon, L, *The Itinerary of Richard I*, Pipe Roll Society, 1935

Lemarignier, J F, *La France médiévale, institutions et sociétés*, Paris, 1970

Lemarignier, J F, *Le gouvernement royal aux premiers temps capétiens*, Paris, 1965

Lloyd, J. E, *A History of Wales, from the earliest times to the Edwardian Conquest*, 3rd edn, London, 1939

Luchaire, A., *Louis VI le Gros, annales de sa vie et de son règne, 1081–1137*, Paris, 1890

Madox, T., *The History and Antiquities of the Exchequer of England*, London, 1769

Malden, H. E., ed., *Magna Carta Commemoration Essays*, London, 1917

Marsh, F. B., *English Rule in Gascony, 1199–1259*, Ann Arbor, 1912

Mitchell, S. K, *Studies in Taxation under John and Henry III*, New Haven, 1914

Mitchell, S. K., *Taxation in Medieval England*, ed. Painter, S., New Haven, 1951

Moore, O. H., *The Young King Henry Plantagenet, 1155–83*, Columbus, Ohio, 1925

Morris, W A, *The Medieval English Sheriff to 1300*, Manchester, 1927

Munz, P, *Frederick Barbarossa*, London, 1969

McKitterick, R, *The Frankish Kingdoms under the Carolingians, 751–987*, London, 1983

Norgate, K, *England under the Angevin Kings*, 2 vols, London, 1887

Norgate, K, *John Lackland*, London, 1902

Norgate, K, *Richard the Lionheart*, London, 1924

Oman, C W C, *The Coinage of England*, Oxford, 1931

Otway-Ruthven, A J, *A History of Medieval Ireland*, 2nd edn, London, 1980

Pacaut, M, *Louis VII et son royaume*, Paris, 1967

Painter, S, *The Reign of King John*, Baltimore, 1949

Painter, S, *William Marshall*, Baltimore, 1933

Patourel, J le, *The Norman Empire*, Oxford, 1976

Pernoud, R, *Eleanor of Aquitaine*, London, 1967

Petit-Dutaillis, C, *Le déshéritement de Jean-sans-terre et le meurtre d'Arthur de Bretagne*, Paris, 1925

Petit-Dutaillis, C, *The Feudal Monarchy in France and England from the Tenth to the Thirteenth Century*, trans Hunt, E D, London, 1935

Pollock, F., and Maitland, F W, *The History of English Law before the Time of Edward I*, 2 vols, 2nd edn, Cambridge, 1898

Poole, A L, *From Domesday Book to Magna Carta*, 2nd edn, Oxford, 1955

Poole, R L, *The Exchequer in the Twelfth Century*, Oxford, 1912

Powicke, F M, *The Loss of Normandy*, 2nd edn, Manchester, 1961

Ramsay, J. H., *The Angevin Empire, 1154–1216*, London, 1903

Ramsay, J. H., *The Revenues of the Kings of England*, 2 vols, Oxford, 1925.

Richard, A., *Histoire des comtes de Poitou, 778–1204*, 2 vols, Paris, 1903

Richardson, H G, and Sayles, G. O, *The Governance of Medieval England from the Conquest to Magna Carta*, Edinburgh, 1963

Rössler, O., *Kaiserin Mathilde*, Berlin, 1897

Round, J H, *Geoffrey de Mandeville*, London, 1892

Sanders, I J, *English Baronies: A Study of their Origin and Descent, 1086–1327*, Oxford, 1960

Saul, N, *The Batsford Companion to Medieval England*, London, 1983

Sayles, G O, *The Governance of Medieval England*, Edinburgh, 1963

Schramm, P E, *A History of the English Coronation*, trans Wickham Legg, G, Oxford, 1937

Smith, L M, ed, *The Making of Britain. the Middle Ages*, London, 1985

Southern, R W, *The Making of the Middle Ages*, London, 1953

Stenton, D M [illegible] *between the Norman Conquest and the* [illegible] London, 1965

Stenton, F M, *The First Century of English Feudalism*, 2nd edn, Oxford, 1961

Trautz, F, *Die Könige von England und das Reich*, Heidelberg, 1961

Ullmann, W, *Principles of Government and Politics in the Middle Ages*, London, 1961

Valin, R, *Le duc de Normandie et sa cour, 912–1204*, Paris, 1909

Waquet, H, *Histoire de Bretagne*, 3rd edn, Paris, 1958

Warren, W L, *Henry II*, London, 1973

Warren, W L, *King John*, London, 1961

Warren Hollister, C, *The Military Organisation of Norman England*, Oxford, 1965

West, F J, *The Justiciarship in England, 1066–1232*, Cambridge, 1936

Wightman, W E, *The Lacy Family in England and Normandy, 1066–1194*, Oxford, 1966

Young, C. R, *The Royal Forests of Medieval England*,

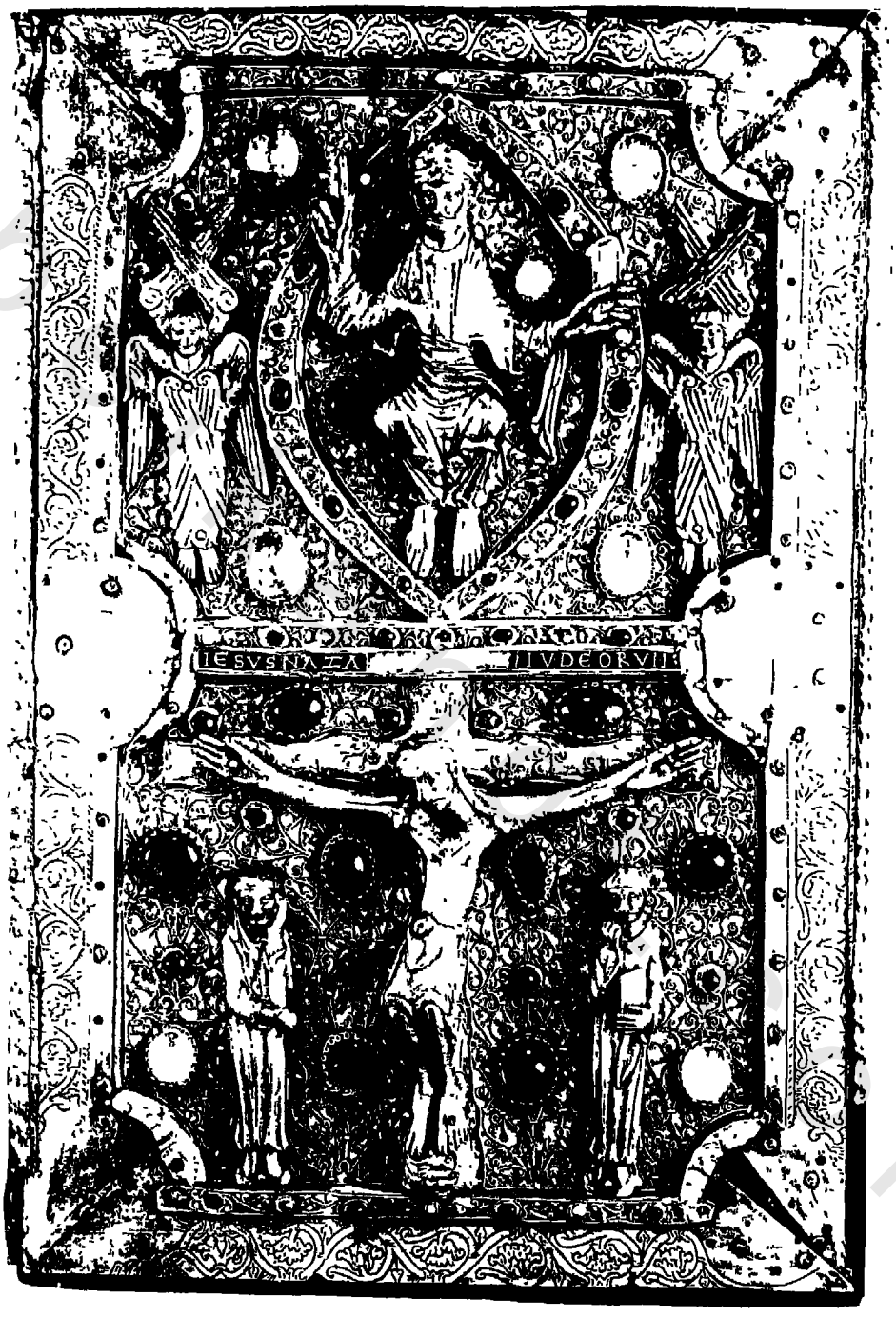

عطاء كتاب ديني يعكس التقاليد المتطورة للعمل الجميل بالمعادن المرصعة بالجواهر

Ecclesiastical

Aubert, M , *Suger*, Saint Wandrille, 1950

Barlow, F , *The English Church, 1066–1154*, London, 1979

Blair, P. H , ed and trans , *The Rule of St Benedict*, 5th edn , Fort Augustus, 1948

Bolton, B , *The Medieval Reformation*, London, 1983

Brooke, C N L , and Swaan, W , *The Monastic World, 1000–1300*, London, 1979

Brooke, Z N , *The English Church and the Papacy from the Conquest to the Reign of John*, Cambridge, 1931

Cheney, C R , *From Becket to Langton English Church Government, 1170–1213*, Manchester, 1956

Cheney, C R , *Hubert Walter*, London, 1967

Colvin, H M , *The White Canons in England*, London, 1951

Cowdrey, H E J , *The Cluniacs and The Gregorian Reform*, Oxford, 1970

Dickinson, J C , *The Origins of the Austin Canons and their introduction into England*, London, 1950

Douie, D L., *Archbishop Geoffrey Plantagenet*, York, 1960

Finucane, R C., *Miracles and Pilgrims: Popular Beliefs in Medieval England*, London, 1977

Foreville, R , *L'église et la royauté en Angleterre sous Henri II Plantagenêt*, Paris, 1943

Formigé, J., *L'Abbaye Royale de Saint-Denis*, Paris, 1960

Gibson, M , *Lanfranc of Bec*, Oxford, 1978

Graham, R , *St Gilbert of Sempringham and the Gilbertines*, London, 1901

Hell, V. and H , *The Road to Compostella*, London, 1966

Hill, B D , *English Cistercian Monasteries and their Patrons in the Twelfth Century*, Chicago, 1968

Kemp, E W , *Canonisation and Authority in the Western Church*, Oxford, 1948

Knowles, M D , *Christian Monasticism*, London, 1969

Knowles, M D , *The Episcopal Colleagues of Archbishop Thomas Becket*, Cambridge, 1951

Knowles, M D., *The Monastic Order in England, 940–1216*, 2nd edn , Cambridge, 1966

Knowles, D., *Thomas Becket*, London, 1970

Krehbiel, E B , *The Interdict, its History and Operation*, Washington, 1909

Lambert, M , *Medieval Heresy*, London, 1977

Lawrence, C H , *Medieval Monasticism*, London, 1984

Lekai, D J., *Les Moines Blancs*, Paris, 1957

Moore, R. I., *The Origins of European Dissent*, London, 1977

Morey, A , and Brooke, C. N L., *The Letters and Charters of Gilbert Foliot*, Cambridge, 1967

Power, E , *Medieval English Nunneries*, Cambridge, 1922

Robertston, J C , *Becket, Archbishop of Canterbury. A Biography*, London, 1859

Saltman, A , *Theobald Archbishop of Canterbury*, London, 1956

Scott James, B , ed and trans., *St Bernard of Clairvaux seen through his Selected Letters*, Chicago, 1953

Southern, R. W., *St Anselm and his Biographer*, Cambridge, 1963

Southern, R. W., *Western Society and the Church in the Middle Ages*, Harmondsworth, 1970

Tierney, B , *The Crisis of Church and State, 1050–1300*, New York, 1964

Vielliard, J., *Guide du pélerin de Saint-Jacques-de-Compostelle, c.* 1163

Voss, L., *Heinrich von Blois, Bischof von Winchester*, Berlin, 1932

Webb, C. C J, *John of Salisbury*, London, 1932

Williams, W, *St Bernard of Clairvaux*, Manchester, 1935

Zarnecki, G., *The Monastic Achievement*, London, 1972

Social and Economic

Baker, D, ed, *Medieval Women*, Oxford, 1978

Bautier, R. H, *The Economic Development of Medieval Europe*, London, 1971

Bennet, H S, *Life on the English Manor*, 2nd edn., Cambridge, 1965

Beresford, M W, and St Joseph, J. K S, *Medieval England: an Aerial Survey*, Cambridge, 1958

Bloch, M., *Feudal Society*, trans Manyon, L A, 2nd edn, London, 1962

Boussard, J, *Nouvelle Histoire de Paris, I, Paris de la fin du siège de 885–886 à la mort de Philippe Auguste*, Paris, 1970

Brooke, C N. L, and Keir, G, *London, 800–1216 the Shaping of a City*, London, 1975

Cazel, F. A, ed, *Feudalism and Liberty: the Articles and Addresses of Sydney Painter*, Baltimore, 1961

Chapin, E, *Les villes de foires de Champagne*, Geneva, 1937, reprinted, 1976

Dhondt, J, *Etudes sur la naissance des principautés territoriales en France, IX^e–X^e siècle*, Bruges, 1948

Dion, R, *Histoire de la vigne et du vin en France des origines au XIX^e siècle*, Paris, 1959

Duby, G, *The Chivralous Society*, ed. and trans Postan, C., London 1977

Duby, G, *Medieval Marriage: two models from twelfth-century France*, trans Forster, E, Baltimore, London, 1978

Duby, G., *Rural Economy and Country Life in the Medieval West*, trans. Postan, C, London, 1968

Evans, J, *Life in Medieval France*, London, 1957

Fourquin, G., *Lordship and Feudalism in the Middle Ages*, trans. Lytton-Sells, I and A., London, 1976

Ganshof, F, *Feudalism*, trans. Grierson, P., 3rd edn., London, 1964

Hinde, T, ed, *The Domesday Book*, London and Markham, Ont, 1985

Lemarignier, J F., *Recherches sur l'hommage en marche et les frontières féodales*, Lille, 1945

Lot, F., *Fidèles ou vassaux? Essai sur la nature juridique du lien qui unissait les grands vassaux à la royauté depuis le milieu du IX^e jusqu'à la fin du XII^e siècle*, Paris, 1904

Mollat, M., *Histoire de l'Ile-de-France et de Paris*, Toulouse, 1971

Pirenne, H., *Les villes du moyen age*, Paris, 1971

Platt, C., *The English Medieval Town*, London, 1976

Poole, A L, *The Obligations of Society in the Twelfth and Thirteenth Centuries*, Oxford, 1946

Postan, M M., *The Medieval Economy and Society*, London, 1972

Power, E, *Medieval Women*, Cambridge, 1975

Pullar, P., *Consuming Passions*, 2nd edn, London, 1972

Reuter, T., ed. and trans, *The Medieval Nobility*, Amsterdam, New York, London, 1979

Richardson, H G, *The English Jewry under the Angevin Kings*, London, 1960

Stenton, D. M., *English Society in the Early Middle Ages*, London, 1951

Tait, J., *The Medieval English Borough*, Manchester, 1936

White, L T, *Medieval Technology and Social Change*, Oxford, 1962

Wilson, A., *Food and Drink in Britain*, 3rd edn., London, 1984

Art, Music and Literature

Anderson, M. D., *The Medieval Carver*, Cambridge, 1935

Arts Council of Great Britain, *English Romanesque Art 1066–1200*, London, 1984

Barber, R. W., *The Knight and Chivalry*, London, 1970

Boase, T S. R , *Death in the Middle Ages*, London, 1972

Boase, T. S. R., *English Art, 1100–1216*, Oxford, 1953

Bony, J , *French Gothic Architecture*, Berkeley, 1983

Borenius, T., *St Thomas of Canterbury in Art*, London, 1932

Bottineau, Y., *Les chemins de Saint-Jacques*, Paris, 1964

Bradford, C. A., *Heart Burials*, London, 1933

Brooke, C N L., *The Twelfth Century Renaissance*, London, 1969

Broughton, B. B., *The Legends of Richard I*. The Hague, 1966

Catto, J. I , ed., *The History of the University of Oxford, I, The Early Oxford Schools*, Oxford, 1984

Chailley, J , *Histoire musicale du Moyen Age*, Paris, 1969

Chaytor, H., *From Script to Print. an introduction to medieval literature*, London, 1966

Clapham, A. W., *English Romanesque Architecture after the Conquest*, Oxford, 1934

Crosland, J., *Medieval French Literature*, Oxford, 1956

Davis, R. H C., and Wallace Hadrill, J. M., ed , *The Writing of History in the Middle Ages ... Essays to R. W. Southern*, Oxford, 1981

Delaborde, H. F., ed. and trans., *Oeuvres de Rigord et de Guillaume le Breton*, 2 vols, Paris, 1882–5

Dodwell, C. R., *Painting in Europe, 800–1200*, Harmondsworth, 1971

Erlande-Brandenburg, A , *Le roi est mort*, Geneva, 1975

Evans, G , *The Mind of St Bernard of Clairvaux*, Oxford, 1983

Evans, J., *Art in Medieval France*, Oxford, 1948

Evans, J , ed., *The Flowering of the Middle Ages*, London, 1966

Fino, F. F., *Fortresses de la France Médiévale*, Paris, 1967

Grabar, A., and Nordenfalk, C., *Romanesque Painting from the Eleventh to the Thirteenth Century*, Lausanne, 1958

Gransden, A., *Historical Writing in England c 550 to c 1307*, London, 1974

Harvey, J. H., *Cathedrals of England and Wales*, London, 1974

Harvey, J H., *The Medieval Architect*, Gloucester, 1972

Haskins, C. H , *The Renaissance of the 12th Century*, New York, 1927

Heltzel, V B., *Fair Rosamund: a Study of the Development of a Literary Theme*, Evanstown, 1947

Holt, J C , *Robin Hood*, London, 1982

James, M R , ed. and trans , *De Nugis Curialium by Walter Map*, Oxford, 1914

Kelly, A , *Eleanor of Aquitaine and her Courts of Love*, London, 1952

Kidson, P., Murray, P and Honour, H , *A History of English Architecture*, London, 1962

Kidson, P , *The Medieval World*, London, 1967

Lasko, P., *Ars Sacra, 800–1200*, Harmondsworth, 1972

Leff, G , *Medieval Thought: St Augustine to Ockham*, Harmondsworth, 1958

Legge, M. D., *Anglo-Norman Literature and its Background*, Oxford, 1963

Mâle, E , *Religious Art in France· The Twelfth Century*, Princeton, 1978

Meras, *Abbayes et Pélerinages de France*, Paris, 1964

Meyer, P., ed and trans , *Histoire de Guillaume le Maréchal*, 3 vols, Paris, 1891–1901

Morris, C , *The Discovery of the Individual, 1050–1200*, London, 1972

Musset, L., *Angleterre romane, I, le sud de l'Angleterre*, Paris, 1983

O'Meara, J. J. ed , *The History and Topography of Ireland by Gerald of Wales*, Harmondsworth, 1982

Panofsky, E , *Abbot Suger and the Abbey Church of Saint-Denis*, Princeton, 1946

Press, A R., *An Anthology of Troubadour Lyric Poetry*, Edinburgh, 1971

Radice, B , ed., *The Letters of Abelard and Heloise*, Harmondsworth, 1974

Rashdall, H , *The Universities of Europe in the Middle Ages*, ed Powicke, F. M., and Emden, A B , 3 vols, Oxford, 1936

Richter, M , *Giraldus Cambrensis*, Aberystwyth, 1972

Sauerlander, W., *Gothic Sculpture in France*, London, 1972

Savage, A , ed. and trans , *The Anglo-Saxon Chronicles*, London, 1983

Sayers, D L , ed. and trans , *The Song of Roland*, Harmondsworth, 1957

Simpson, O von, *The Gothic Cathedral*, London, 1956

Southern, R W , *Medieval Humanism and Other Studies*, Oxford, 1970

Thorpe, L , ed , *The History of the Kings of Britain by Geoffrey of Monmouth*, Harmondsworth, 1966

Topsfield, L T , *Troubadours and Love*, Cambridge, London, New York, 1975

Van der Werf, H , *The Chansons of the Troubadours and Trouvères· a study of their melodies and their relation to the poems*, Utrecht, 1972

Webb, G , *Architecture in England the Middle Ages*, Harmondsworth, 1954

Whitelock, D and others, eds , *The Anglo-Saxon Chron*, rev edn , London, 1961

Zarnecki, G , *English Romanesque Sculpture, 1066–1140*, London, 1951

Zarnecki, G., *Later English Romanesque Sculpture, 1140–1210*, London, 1953

Zarnecki, G., *Romanesque Art*, London, 1971

Crusades and Warfare

Benevenisti, M , *The Crusaders in the Holy Land*, Jerusalem, 1970

Brown, R A , *English Castles*, 4th edn , London, 1976

Ehrenkreutz, A S., *Saladin*, New York, 1972

Godfrey, J., *1204. the Unholy Crusade*, London, 1980

Hill, G , *A History of Cyprus*, 2 vols, Cambridge, 1940

Koch, H W , *Medieval Warfare*, London, 1978

Lewis, B , *The Assassins*, London, 1967

Mayer, H. E , *The Crusades* trans. Gillingham, J , Oxford, 1972

Norwich, J J , *The Kingdom in the Sun*, London, 1970

Oman, C , *A History of the Art of War in the Middle Ages, 378–1485*, 2 vols, 2nd edn , London, 1924

Prawer, J , *The Latin Kingdom of Jerusalem*, London, 1972

Riley-Smith, J , *The Knights of St John in Jerusalem and Cyprus, c. 1050–1310*, London, 1967

Runciman, S , *A History of the Crusades*, 3 vols, Cambridge, 1951–4

Setton, K M and others, *A History of the Crusades*, vols I–II, Madison, 1962

Smail, R. C, *Crusading Warfare, 1097–1193*, Cambridge, 1956

Sumption, J., *The Albigensian Crusade*, London, 1978

Verbruggen, J. F., *The Art of Warfare in Western Europe during the Middle Ages*, Oxford, 1977

Bibliographies, Atlases and Reference Works

Centre National de la Recherche Scientifique, *Bibliographie Annuelle de l'histoire de France*, Paris, 1953–

Douglas, D. C, and Greenaway, G. W., eds., *English Historical Documents II, 1042–1189*, London, 1953

Falkus, M, and Gillingham, J., *Historical Atlas of Britain*, London, 1981

Gross, C., and Graves, E B, *A Bibliography of English History to 1485*, Oxford, 1975

Longnon, A., *Atlas Historique de la France*, 2 vols, Paris, 1885–9.

Rothwell, H, ed., *English Historical Documents III, 1189–1327*, London, 1965

Royal Historical Society, *Annual Bibliography of British and Irish History*, London, 1976–

obeikandl.com

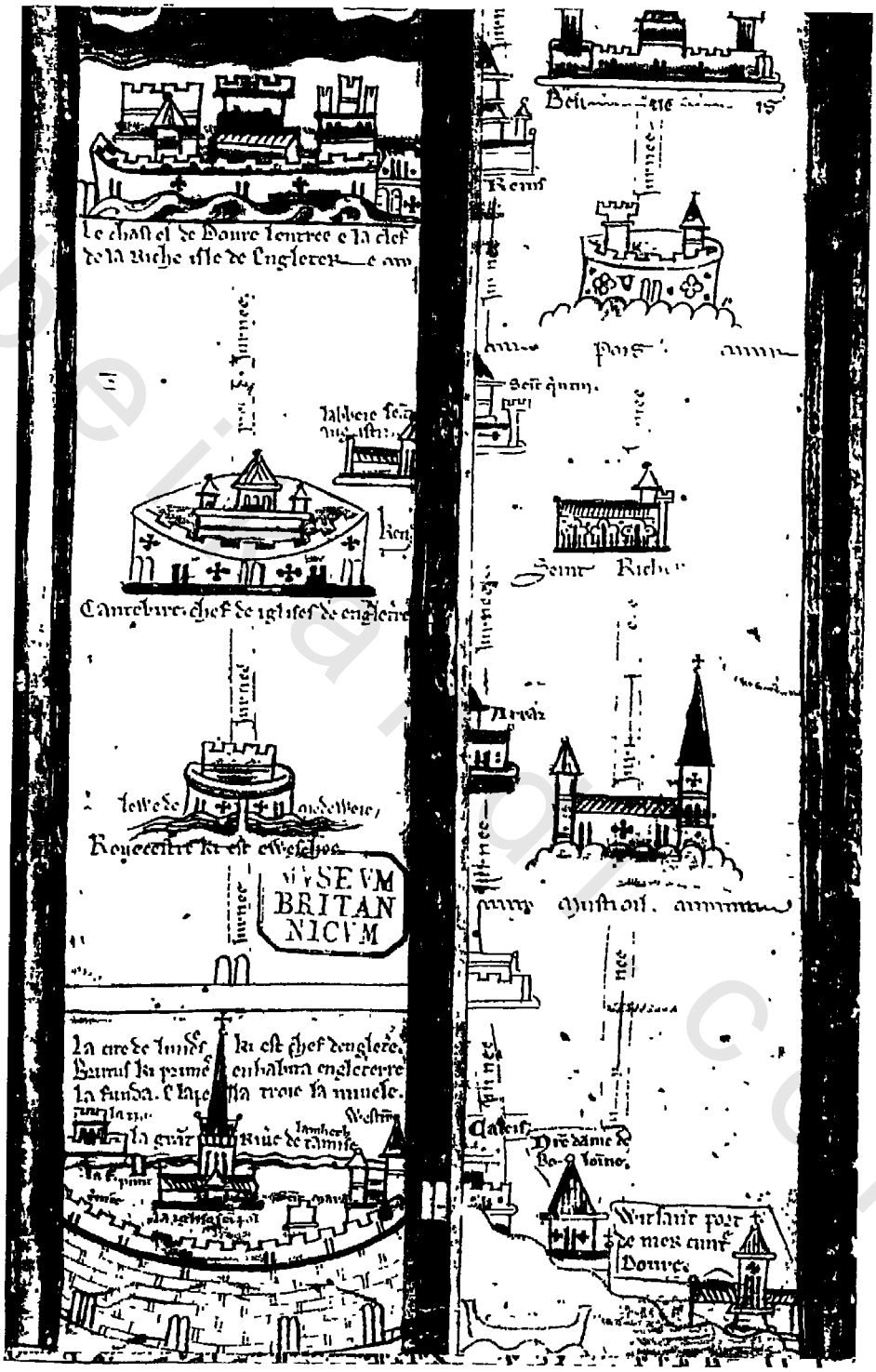
Le chastel de Doure lentree e la clef
de la riche isle de Engleterre e au
Cantebure chef de leglise de engleterre
Rouecestre la est eueschie
MVSEVM
BRITAN
NICVM
Douure

Chronicles

Part I

John of Marmoutier, *The Chronicles of the counts of Anjou*, ed L Halphen & R Poupardin in *Chroniques des comtes d'Anjou et des seigneurs d'Amboise*, Collection des Textes, Paris 1913, pp 29–31, 37–44, 143–51, 161–2 Extracts

Part II

John of Marmoutier, *The History of Duke Geoffrey*, in *The Chronicles of the counts of Anjou*, ibid , pp 176–231 Extracts

Henry of Huntingdon, *The History of the English*, ed T Arnold in Rolls Series 1879, pp 259–92 Extracts

The Deeds of Stephen, (anon), trans and ed Thomas Forester in *Henry of Huntingdon*, Henry G Bohn, London 1853 Extracts

Part III

Ralph of Diceto, *Images of History*, ed W Stubbs in *The Historical Works of Master Ralph of Diceto*, Rolls Series 1876, I, 291–439, II, 3–66 Extracts.

William of Newburgh *The History of English Affairs*, ed D C Douglas and G W Greenaway in *English Historical Documents 1042–1189*, London 1953; pp 322–3, 325, 329–30 Extracts

The Deeds of King Henry II, in *English Historical Documents*, op cit , pp 377–9 Extracts

William FitzStephen, *The Life of St Thomas Becket*, ed and trans G W Greenaway in *The life and Death of Thomas Becket, Chancellor of England and Archbishop of Canterbury*, The Folio Society, London 1961, pp 35–44, 55–8, 156–7. Extracts.

William FitzStephen, *Description of the city of London (1170–1183)*, given as a preamble to his *Life of St Thomas Becket*, ibid Extracts.

Adam of Eynsham, *The Life of St Hugh of Lincoln*, ed the late Decima L Douie & David Hugh Farmer in *Magna Vita Sancta Hugonis*, Oxford University Press, 2nd edn 1985, I, 60–3, 85–6, 115–9, II, 93–4, 104–9, 125–30, 169–70 Extracts

Jordan Fantosme, *Chronicle of the War between the English and the Scots*, in *English Historical Documents*, op cit

Part IV

Ralph of Diceto, op cit , II, 66–166 Extracts

Rigord, *The Deeds of Philip Augustus*, ed H -F Delaborde in *Oeuvres de Rigord et de Guillaume le Breton*, Société de l'Histoire de France 1882–5, pp 106–9 Extracts

Richard, canon of Holy Trinity, Aldgate, *The Itinerary of the Pilgrims*, ed W Stubbs in Rolls Series 1864, pp 259–78 Extracts Also *The Deeds of King Richard*, ed W Stubbs in Rolls Series 1867; II, 80–4, 151–5, 158–61. Extracts

Adam of Eynsham, *The Life of St Hugh of Lincoln*, op cit , II, 98–105, 134–7 Extracts

Gerald of Wales, *The Description of Wales*, trans Lewis Thorpe in *Journey through Wales/Description of Wales*, Penguin, London 1978 (copyright the Estate of Lewis Thorpe 1978) Extracts.

Part V

Ralph of Diceto, op cit , II, 166–75 Extracts

Ralph of Coggeshall, *The English Chronicle*, ed J Stevenson in *Chronicon Anglicanum*, Rolls Series 1875, pp 101–62 Extracts

The 'Barnwell' Annals (anon), ed W. Stubbs in *The Historical collections of Walter of Coventry*, Rolls Series 1873, II, 201–32 Extracts

Gervase of Canterbury, *The Deeds of Kings*, ed W Stubbs in *The Historical Works of Gervase of Canterbury*, Rolls Series 1880; II, 96–106. Extracts